التغيير حركة وبركة

كلمة العدد:

بقلم: الصيدي المنصوري

قبل تسعة أعوام انبلج فجر السّابع من نوفمبر حاملا على عاتقه رسالة التجديد والتحديث التي بشرت بالاستقرار وأوعزت بالتقدّم والتطوّر على أسس حضارية قوامها التضامن الوطني الذي مارسه التونسيّ برغبة وحماس ووعي مكين ...

* * *

واليوم إذ نستقرئ المنجزات ينشد انتباهنا إلى ذلك العمق الذي لامسته الحركة وهي تجدد الهياكل وتكرس نظام القانون والمؤسسات من منظور علمي مرن وباستقطاب ذوي الخبرة والكفاءة من مختلف جهات البلاد ... سعيا إلى استنارة علمية تنفع الإنسان وتعلي شأن الوطن . ولقد كانت همة رجل التغيير متعلقة بأسباب نهضة شاملة نرى التونسي اليوم ينعم بها ويساهم في ارساء مقوّماتها الحضارية بتلقائية وفي مختلف ميادين الحياة ...

* * *

لقد أصبحت أغراض التغيير الشامل واضحة وجلية من خلال ما تحقق للبلاد والعباد ، وما هو بصدد التحقق حتى تظل تونس الغالية واحة أمن يطيب فيها العيش والمقام ، لذلك نحيي اليوم الذكرى الوطنية الخالدة باعتزاز وتطلّع مفعم بالإحساس بالمسؤولية . ولنا أن نحصي المشاريع ونقف عند دقة التخطيط واعتدال المواقف السياسية التي أضحت نموذجا يحتذى به .

* * *

ولقد كان الرّهان التجديدي ثقافيا في صميم مبادئه وطنيا من حيث نشدانه مراعاة الخصائص الجغرافية والتاريخية لهذا البلد الأمين بحكمة قيادته وبوفاء شعبه . لهذا يجدر بالمثقف أن يكون في طليعة المحتفين مثلما كان طيلة السنوات التسعة الماضية عاملا أساسيا من عوامل استنهاض العزائم ومجنّدا لتكريس القيم المثلى والمبادئ السّامية التي : يلخصها أبو القاسم الشابي في قولـــه :

« لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه
عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه »

وإنه لجدير كذلك بأن يعدد ما تحقق للقطاع الثقافي من إجراء ات إصلاحية عملية أولى ثمارها أن تنتخب بلادنا عاصمة ثقافية إقليمية مع حلول سنة 1997 ، ومن مظاهرها أيضا تلك الحركية المتواصلة وذلك الإشعاع المستمر في شتى الميادين الفكرية والفنية ، والتي كلّما أصابت هدف إلا وكان رجل التغيير سباقا إلى مزيد دعمها ولنا في ما اتخذ مؤخرا من إجراء ات ريادية لقطاع السينما خير دليل .

* * *

فهنيئا لتونس بعيدها ، وهنيئا لتونس برجالاتها ، وعاشت تونس رافعة لواء الوحدة الإفريقية والعربية والإسلامية ، وعاشت تونس ملتقى الحضارات وعاصمة الثقافات وأرض التسامح والحرّية وحقوق الإنسان وكلّ عام وتونس بخير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التـــاريـــخ ، القانـــون والحـــداثـــة
(3)
حسين (الجنرال) : أوّل « محامي » تونسي ؟

بقلم : محمد بن الأصفر المحامي

إنّ المحاماة كمهنة وعلى الطريقة الأروبية ، قد ظهرت في تونس على مراحل أهمّها اثنتين ، الأولى كانت سنة 1884 وهو الوجود الفعلي للخطة ، والثانية كانت في غرة أكتوبر 1887 حين ظهر قانون ينظم المهنة (1) .

فليس المقصود حينئذ التأريخ لمهنة المحاماة وإنما الحفر في ملفات القضايا وفي الأدبيات القانونية على طريقة صيادي البحر عسانا نجد آثارا تدل على أن التونسي قد عانق الحداثة قبل دخول الحماية لتونس سنة 1881 على نفس الخط الذي التزمنا به في دراستينا السابقتين « التاريخ والقانون والحداثة (1) ـ القانون الوضعي في بلد اسلامي ـ مثال : تونس » (2) و« التاريخ والقانون والحداثة (2) : الشيخ محمد بيرم الخامس والقانون الوضعي ـ الخاص » (3) والمحامي الذي نبحث عنه كرائد لا نطلب منه أن يكون قد تخرّج من مدرسة للحقوق أو حتّى للشريعة ، أو أن يكون قد أدّى اليمين وانتصب في مكتب يستجيب لمقتضيات السرّ المهني لأننا في هذه الصورة سنكون مضطرين للحديث عن الأستاذ أحمد الفطاس المحامي الذي نشط كثيرا في الحياة الجمعياتية وخاصة منها الجمعية الخلدونية (4) ... ...

لكل هذه الاعتبارات عدنا للحديث عن الجنرال حسين الذي جعلت منه الظروف الخاصة بتونس في القرن التاسع عشر أول محام تونسي يدافع خارج اطار القضاء الشرعي وانما في خضم القوانين الإيطالية والفرنسية

فمن هو الجنرال حسين ؟

أوّلا : من هو الجنرال حسين

إنّ الجنرال حسين مملوك شركسي (1820 م ـ 1887) وهو من أوائل تلامذة مدرسة باردو الحربية التي أسسها أحمد باي (1806 ـ 1855) وكان الأوّل في دفعته . (5)

وممّا يعرف عنه أنّه أوّل رئيس للمجلس البلدي بتونس العاصمة ، وكان وزيرا للمعارف في حكومة خير الدين (6) ومن آثاره المكتوبة باللغة العربية :

ـ الرائد

ـ خطاب في المجلس الكبير

- حسم الالداد في نازلة الوزير بن عياد (7)

أمّا آثاره باللغة الفرنسية فهي :

- رسالة إلى المحامين (Lettre Aux Avocats)

- الردّ (Repligue) (8)

وكان من أعيان القضاة (غير الشرعيين) ، أي العاملين في إطار قوانين العدلية التونسية المجسمة لأدبيات دستور عهد الأمان (1) حيث كان رئيسا لمجلس الجنايات والأحكام العرفيـــة (9) الى حدود سنة 1280 هـ / 1863 م حين استقال منها (10) .

ثانيا : ثقافة الجنرال حسين وعلاقتها بالقانون الوضعي

إنّ الجنرال حسين هو أوّلا تلميذ بالمدرسة الحربية بباردو ، وهو ثانيا أوّل رئيس للمجلس البلدي ، وهو ثالثا قاض بالمحاكم التونسية غير الدينية مثلما سبق بيانه ... .

وإنّ كل هذه الخطط والمراحل من حياة حسين قد جعلته يلتقي بالقانون الوضعي :

ثانيا : 1) تلميذ بالمدرسة الحربية بباردو

إنّ برامج التعليم بالمدرسة الحربية بباردو تتضمن دراسة القوانين العسكرية الوضعية الى جانب القرآن الكريم (11) ... .

وإنّ ما يدرس من « علم القوانين العسكرية » كلها تتصل بالقوانين الوضعية مثل : قانون التصرفات الحربية ، وقوانين خدمة المترسات وقوانين الخدمة البرانية ... الخ ... (12)

وهذه القوانين في حد ذاتها تمهد لثقافة وضعية قانونية ليست ذات مشرب ديني ... ...

ثالثا : 2 : أوّل رئيس لمجلس بلدية العاصمة

هذه الخطة ، هي الأخرى تجعل صاحبها يلتقي مع القانون الوضعي ويتعامل معه ... ..

إنّ الأمر العلي المؤرخ في 30 أوت 1858 المتعلق بتأسيس بلدية تونس جاء في فصله الحادي عشر ناصا على اجراءات الانتزاع وطرق التقدير والتعويض (13)

وهذا رافد ثان يجعل الجنرال حسين يتعامل مع القانون الوضعي باعتبار أنّ النّظم القانونية الإسلامية في تونس لا تعرف الإنتزاع ... ...

ثالثا 3 : رئاسة الجنايات والأحكام العرفية

إنّ مجلس الجنايات والأحكام العرفية قد طبق الأحكام القانونية المستمدة من مصادر غير دينية ناهيك أنّ هذه القوانين تلتزم بمبدأ التقسيم للجرائم وهي :

أ) المخالفات - ب) الجنح - ج) الجنايات (14) ثمّ إنّ هذا القانون يشمل الجرائم بشكل يخالف القانون الجزائي الإسلامي المتكوّن من جرائم الحدّ ، وجرائم التعزير (15)

ثالثا 4 : رئاسته للرائد التونسي

إنّ الرائد التونسي هو الجريدة الرسمية التي تنشر بها القوانين لكي تصبح نافذة المفعول وهي التي تطورت اليوم لتصبح ما يعرف بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية الذي تأسس سنة 1860 (16)

وبما أنّ الإتفاق بين الصادق باي وصاحب امتياز المطبعة الرسمية الأنجليزي ريشار هولت قد اقتضى أنّ رئيس المجلس البلدي هو رئيس المطبعة المذكورة ، فقد كان الجنرال حسين أوّل مدير للرائد التونسي (17)

وبهذه الصفة فإن حسينا قد نهل من المصدر الأساسي للقانون الوضعي في تونس ، لأن الرّائد التونسي في قسمه الرسمي (18) ينشر القوانين وهي غير ما أنزل من عند الله عزّ وجلّ وإنما ما يعبر عن ارادة السياسيين من باي ووزراء .

وهكذا فإنّ الجنرال حسين قد التقى في أكثر من مناسبة بالقانون الوضعي سواء كتلميذ بالمدرسة الحربية بباردو ، أو كمسؤول أول في المجلس البلدي والرائد التونسي أو كرئيس لمحكمة هي مجلس الجنايات والأحكام العرفية ... فلعلّ هذه الظروف مجتمعة بالإضافة الى دراسة اللغة الفرنسية أو (الفرنساوية) بالمدرسة الحربية المذكورة (19) قد أهلته ليكون أوّل محام تونسي يتعامل مع القانون الوضعي خلافا للوكلاء ، على غرار وكيل الخصام ببيت المال الذي كان دوره يقترب من دور المكلف العام بنزاعات الدولة اليوم في « الاداء بالمجالس الشرعية » (20)

رابعا : الجنرال حسين محاميا

إنّ الجنرال حسين قد كان محامي الدولة التونسية في ايطاليا وفرنسا في قضايا مختلفة منها : قضية كستلنيوفو ، وقضية القابض نسيم بيشي وقضية ابن عياد . (21)

فكيف كان أداؤه لهذه الوظيفة المستحدثة ؟

قبل التطرق الى هذا الجانب نود أن نبيّن أنّ ما قام به حسين هو في الحقيقة ما كان يعبّر عنه بالسفارة التي لم تكن في الماضي تعني رئاسة البعثة الديبلوماسية ، فلقد كانت هذه الخطة من مشمولات القناصل بالنسبة للدول المستقلة (22) وكان النظام المعمول به بين الامبراطورية العثمانية وولاياتها أو فيما بين الولايات العثمانية هو اعتماد الوكلاء (جمع وكيل) (23) بينما كانت السفارة تعني ما يعبّر عنه اليوم بالمبعوث الخاص لرئيس الدولة أو لرئيس الحكومة أو ما يعبّر عنه أحيانا السفير المتجوّل Ambassadur Itineraire وهذا طبعا خارج العالم الاسلامي ، لأنّ اوروبا عرفت السفارة بمعناها القار في المكان منذ القرنين 15 و 16 بالنسبة للبندقية (فينيزيا) ، ليتعمم العمل بذلك خلال القرن 17 ... ... (24) أما في الدول الاسلامية فاللقب (سفير) لم يعن أبدا رئيس البعثة الديبلوماسية القارة فهو قد استعمل في الشام كلقب للتجار المترددين على الممالك لجلب المماليك ونحو ذلك ، (25) كما دل في مصر على كاتب السر في العصر المملوكي (26) ... أما في الجناح المغربي من العالم العربي الإسلامي فهو الأقرب للمبعوث الخاص للرئيس أو السفير المتجوّل باعتباره يدل على القيام بمهمة في البلدان الأجنبية والإسلامية لدى ملوكها ثم عند عودته يكتب تقريرا مفصلا يذكر فيه كل ما رأى أو حدث له أو اطلع عليه (27)

وفي إطار هذا المفهوم الأخير للسفارة مارس الجنرال حسين وظيفة المحامي بعقلية وبمقاربة المكلف العام بنزاعات الدولة وهو في جوهره كوظيفة ، محامي الدولة ... .. فلقد توجه الى ليفورن (قرنة) والى فلورنسا ليعالج قضية القايد نسيم شماما(28) ... الخ ... على أننا

سنتخذ من قضية كسلنيوفر Castelnuovo مثالا على منهجه في الاداء (29) و (30)

وتتمثل وقائع هذه القضية التي تعهدت بها محكمة فلورنس Firenze في أنّ هنشير الجديدة (31) الذي كان على ملك الوزير مصطفى خزندار قد اكتراه الطبيب الإيطالي كستلنوفو وأسس شركة لاستغلاله وقد أدخل الطبيب المذكور شخصيات إيطالية لها تأثير على السياسة والاقتصاد وجعل الضيّعة لابنه (قليم) ... (32) وعندما نشأت الخلافات بين كسلنيوفو والإدارة التونسية وقع الالتجاء في أول مرحلة للقنصل الإيطالي الذي خلق من النزاع خلافا دبلوماسيا ..... وتطورت القضية لتزامنها مع ازدياد المطامع الريطالية في استعمار تونس فحاولت ايطاليا ابتزاز تونس مطالبة بامتيازات جديدة وهددت بارسال مراكب حربية إلى المياه الإقليمية التونسية ... وبناء على نصيحة القنصل البريطاني وود (Wood) بعث الباي الجنرال حسين إلى (فلورنس) لتتبع أطوار القضية (33) وقد صدر الحكم في القضية سنة 1873 على وجه الصلح وعلى مستوى محكمة التعقيب .

رابعا : 1 ـ اعداد ملف القضية :

إن من مواد شهادة الكفاءة لمهنة المحاماة ، اعداد الملفات .. (34) والجنرال حسين الذي كان انتصب قاضيا بصفته رئيسا لمحكمة الجنايات والأحكام العرفية مثلما سبق بيانه كان له النظر الأول والأخير في إعداد ملف قضية كستلنيوفو .

في رسالة للجنرال حسين مبعوثة إلى الوزير خير الدين (؟ ـ 1889) مؤرخة في 1872/4/18 يعلم الأول الثاني بانه : « انتهى من الجواب على مطلب كستلنوفو وسلم أكبر قسط من الجواب إلى المحامي »(35) ويعلق حسين على هذه الملحوظات الجوابية بقوله : « ... أمكن تكذيب كلام الخصوم بسهولة » (35)

ومن نفس هذا المصدر نفهم ونستقي ثلاثة معلومات في طريقة ومنهج عمل الجنرال حسين في معالجة هذه القضية وهي :

أ) انه هو الذي يعد الملف بما في ذلك تحرير المطالب والردود .

ب) ان محاميا ايطاليا يقدم تلك الوثائق والتقارير إلى المحكمة

ج) انه يستعين بشخص أوروبي اسمه مسيو برجليني كل القرائن تدل على أنه يقوم بوظيفة المستشار القانوني للجنرال حسين ، إذ هو يشيد « بمجهوده ونصحه » وهذا لا يقلل من دور الجنرال حسين الذي لا عيب في عدم المامه بالقانون الإيطالي .

وفي رسالة ثانية مبعوثة لنفس الوزير خير الدين مؤرخة في (21 مارس 1872) اي أنها سابقة عن الرسالة الأولى نجد الجنرال حسين يطلب من الأول مده « بأصل العقد الذي أخذ به كستلنيوفو المكان ... » (36) ثم يذكر السبب وهو « لأنه لم يجده فيما عنده من أوراق نازلة الجديدة » (36)

وهذه فكرة واضحة على طريقة ومنهج الوزير الجنرال حسين في إعداد الملفات والأجوبة في القضايا التي باشرها وهي الطريقة التي نعرفها ونعمل بها إلى هذا اليوم .

رابعا : 2 ـ المساعي الصلحية كبديل للمتقاضي المنازعي :

انه إلى جـانب المنازعـة (contenieux) كاختيار قضائي ، فإن الوزير حسين قد قام بمساعي صلحية بلغت مرتبة العمل الدبلوماسي ففي رسالة إلى الوزير خير الدين مؤرخة في 23 مارس 1871 يعلم حسين بأنه قد تلقى من « البروتوكول » بواسطة مسيو سبسفومو وبموافقة السفراء عرضا بقبول الحل الصلحي للحكومة الإيطالية . (37)

وقد توخّى حلا ناجعا على الأقل في ظرفيته الخاصة إذ أنه قد أخضع شرح الوزير الإيطالي إلى المحامي الذي شرحه له وهو بدوره وعلى أثر ذلك اقتنع بالعرض الصلحي وقبل الشروط (37)

ويبدو أن هذه المساعي الصلحية قد وقع تعديلها في مرحلة ثانية لأن النزاع قد تواصل بعدها بمدة .

ولم يدخر حسين جهدا في سبيل الاختيار الصلحي الدبلوماسي إذ من أجله عقد صداقات جديدة مع أشخاص من « أهل قمره إيطاليا » أي من « الكاميرا ـ camra » (38) وهو البرلمان أطلعهم على حقيقة النازلة ، لما لهم من النفوذ السياسي وذلك يتضح من مكتوب مؤرخ في 14 مارس 1871 بعث به إلى الوزير خير الدين (39) .

وقد كان التشاور بين حسين وخير الدين حول المساعي الصلحية قد استغرق عدة مكاتبات منها اثنتين مؤرختين في نفس يوم 29 مارس 1870 (40) وعندما أصبحت المساعي الصلحية ناضجة سعى إلى التحصيل على حكم قضائي ينطوي على إمضاء الصلح Homologation de l'arrangement a l'amable وقد عبّر الجنرال حسين عن ذلك في تلغراف وجهه إلى خير الدين من باريس بتاريخ 20 أكتوبر 1872 (41) يعلمه فيه بما يلي :

أ ـ ان مجلس التحكيم قد رفض مطالب الخصم في التعويض عن الأضرار الناشئة عن مياه وادي مجردة .

ب ـ امكانية البحث في الأضرار المباشرة بعد البحث على العين ، أي بتوجه المحكمة كما تقول الآن ، كما أفاده بأن إقامة الدليل بالشهادة على هذه الأضرار المباشرة يكون في ظرف 4 أشهر

ت ـ إن حقوق الباي محفوظة والشركة موجودة بتونس بفضل ترخيصه لها (مسألة السيادة)

ث ـ ان حقوق خزندار في ملكية الأرض محفوظة هي الأخرى (مسألة حق الملكية)

ج ـ ان المحكمين (JURY) أو (JURES) قد أوصوا الأطراف بالتصالح في أثناء المدة المذكورة (4 أشهر) وقد طلب الرئيس ذلك من الجنرال حسين مشافهة .

ح ـ ان الحكم سيصدر مكتوبا خلال أسبوع ....

وقد صدر الحكم بالانفصال فعلا يبدو وأنه قد قدم لحكمة التعقيب ، لكن ليس بعد أسبوع من التلغراف المؤرخ في 1872/10/20 وإنما بعد بضعة أشهر في أواسط سنة 1973 (42)

إن أداء الجنرال حسين في هذه القضية سيكون حتما هو نفسه في القضايا الأخرى ، (قضية نسيم شمامة) و (قضية محمود ابن عياد) ... الخ ...

ولقد وقفنا على إمكانياته في تكوين الملفات واعداد التقارير بحيث إنه قد كان هو المحامي

الفعلي بما قلّص دور المحامين الأجانب ....

ومن هنا نستنتج الظروف التي جعلته يضع كتابه المهور : « رسالة إلى المحامين Lettre aux avocats (43) لكن هل يقبل العقل أن يكون الجنرال حسين هو محرّر الردود القانونية بإعانة مستشاره برجيليني سابق الذكر ؟

رابعا : 3 ـ المعارف القانونية للجنرال حسين :

قد يتساءل سائل ، هل يكفي أن يكون الجنرال حسين رئيسا لمجلس الجنايات والأحكام العرفية بتونس لكي يحرر الردود في قضية كاستلونو المعروضة على القضاء الإيطالي ؟

وهل يكفي أن يستعين بالمسمى برجيليني الذي يبدو أنه مستشار قانوني إيطالي لكي يقوم بالمهمة على أحسن وجه ؟ أليست معرفة القانون معظلة بالنسبة إليه ؟

لقد وجد من بين مخلفات الجنرال حسين كتاب بعنوان : « القسطاس المستقيم في ظهور اختلال الحكم في جنسية القائد نسيم » يقول الأستاذ حفناوي كما بر أنه في ألفه كرد على الحكم الذي أصدرته محكمة ليفورن في 1878/1/27 وقد قضت بأن القائد نسيم ضمامة توفي على غير جنسية (APATRIDE) مما يترتب عليه ضياع أموال الدّولة التونسية التي هرّبها إلى الخارج بوصفه قابض الخزينة التونسية (44) .

وكان الجنرال حسين قد باشرها ، إذ على إثر وفاة نسيم أسرع الوزير خير الدين بطلب عقلة أموال نسيم المتوفى عن غير عقب بتونس لكن أفراد عائلة نسيم الوراثين لأمواله الكثيرة هربوا إلى قرنه (ليفورن) وانتقلت القضية إلى هناك وعين حسين يتتبع أطوارها (45) ... وقد

ويبدو أن ورثة نسيم قد مالوا في يوم إلى الصلح مع الحكومة التونسية ما عدا اجماعه لمبروزو (46) ....

ومن خبره حسين في المسائل القانونية تعبيره عن شكوكه في سلامة وثائق الوصية التي يمسكها ورثه نسيم (46) ... وقد ترأس المحكمة التي بتت في القضية الرئيس فلياني ومن بين من تولوا الدفاع فيها المحامي قليوتي (46) وفي رسالة مؤرخة في 1873/7/19 (47) يصدق حدس الجنرال حسين إذ أن المسمى المليح أصيب بالكوليرا فحدثه عن حقيقة تلك الوصية لذلك فهو يطلب من خير الدين ان يستصدر فتوى من أحبار اليهود ببطلان الوصية فتصبح أملاك نسيم أملاكا للدولة .

فماذا جاء في رده على حكم المحكمة ؟

يقول الدكتور حفناوي عمايرية كان على الجنرال حسين أن يدرس مسألة الجنسية من الناحية القنونية وموقف الشريعة الإسلامية (48) ونلمس أن للرجل ثقافة قانونية كافية بل ضافية إذ هو قد بلغ إلى درجة البحث في مسألة الجنسية رابطا بينها وبين القانون الدولي الخاص ، فهو يقول أن الإسلام مثل القانون الروماني لا يبيح سقوط الجنسية وهو ما نعبر عنه الآن بمبدأ الانتماء الدائم L'allegeance perpetuelle ثم يمر للحديث عن مفهوم الدولة القومية L'etat naion حين يقول أن الانتماء الدائم سقط بسقوط الإقطاع الذي كان يقتضي ملكية الأرض

ومكانتها وعوض بالترخيص لكل إنسان في أن يستقر حيث شاء وله أن ينفصل عن وطنه متى شاء .... ليتخلص إلى تفكير ينبني على المنهج المعتمد اليوم في القانون الدولي الخاص وهو قاعدة الإسناد Regle de rattachement في تنازع اختصاص القوانين الدولية للانطباق في نازلة معينة وهي أن نسيم شمامة يهودي مرتبط بالدولة التونسية بعهد الذمة ومن ثمة تنطبق عليه أحكام الشريعة الإسلامية ... والإسلام يجعل منظوريه متقيدين برسومه وغير خارجين على حدود الدين ولو قطعوا الأرض بالطول والعرض ومشوا في مناكب الأرض وسكنوا أين شاؤوا . (49)

وان عارضا عارفا بالقوانين على هذه الدرجة من العمق بحيث بلغ به الأمر إلى حد التأليف في فرع من أعوص فروع القانون وهو القانون الدولي الخاص القادر على مد المحامين بالمذكرات والتقارير وما عليهم إلا تقديمها للمحاكم ... وفي الحقيقة فإن كتاب القسطاس السليم للجنرال حسين هو مستندات طعن بالاستئناف أو بالتعقيب في القضية نفسها ، قضية القايد نسيم ....

وهذا يعني بما لا شك معه أن حسين محام بأتم معنى الكلمة ولو لم يترافع شخصيا أمام المحاكم ...

واحقاقا للحق فإن الجنرال حسين قد اتخذ مساعدا ومستشارا له في قضية نسيم شمامة الشيخ سالم بوحاجب (1828 ـ 1924) وقد التقى به الشيخ محمد بيرم الخامس في إيطاليا (59) لكن لا نتصور أن مشورة الشيخ بوحاجب تتجاوز الناحية الفقهية الشرعية فهو من مدرسين جامع الزيتونة ويعود الفضل للجنرال حسين وجدّه في اثراء المكتبة التونسية بأدبيات القانون الوضعي في وقت لم يكن يسمح بذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإحالات :

1) الأستاذ محمد بن الأصفر المحامي : محاولة لكتابة تاريخ المحاماة بتونس ومجلة المحاماة ـ الهيئة الوطنية للمحامين بتونس ـ العددان 1 و 2 لسنة 1994 ـ 13 .

2) محمد بن الأصفر : مجلة ـ الإتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة سبتمبر 1996 ـ عدد 71 ـ الصفحات من 05 إلى 23 .

3) محمد بن الأصفر المحامي ـ مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة اكتوبر 1996 ، عدد 72 ـ الصفحات من ... إلى ...

4) MONGI SAYADI = La jamyya khalduniya (1896 < 1958) M : T : E Tunis p 43 1974

5) JEAN FONTAINE : Histoire de la letterature tunisienne par les textes tome II (du 13 eme siecle a l'indepandance editions sahar tunis 1994 p 103

6) جان فونتان : تاريخ الأدب التونسي من خلال النصوص (بالفرنسية) مس ـ ص 103 .

7) جان فونتان : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية ـ تعريب حمادي صمّود ـ المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ بيت الحكمة ـ قرطاج ـ 1986 ـ ص 137 .

8) جان فونتان : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية ـ م ـ ص ـ ص 137

9) محمد بن الأصفر : التاريخ ، القانون والعدالة ، القانون الوضعي في دولة إسلامية ـ مثال : تونس ـ مجلة الإتحاف اللجنة الثقافية بسليانة ـ سبتمبر 1996 ـ العدد 71 ـ ص 5

10)أحمد ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ تحقيق الأستاذ المرزوقي ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ 1990 ـ الجزء 5 ص 113 .

11) مدرسة باردو الحربية : دراسة وتحقيق الدكتور محمود عبد المولى ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس / ليبيا 1977 ص 112 .

12) مدرسة باردو الحربية ـ م س ـ ص 112 .

13) محمد بن الأصفر : انتزاعان في العهد الحسيني وقبل صدور دستور عهد الأمان ـ مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 64 ـ ديسمبر 1995 ـ ص 25 .

14) محمود شمام : خلاصة تاريخ القضاء بتونس ـ مطبعة الوفاء ـ تونس 1992 ـ ص 57 .

15) محمد بن الأصفر : انتزاعان في العهد الحسيني ـ م س ـ ص 17 .

16) الدكتور محمد حمدان ـ أعلام الإعلام في تونس (1860 ـ 1956) مركز التوثيق القومي ـ تونس ـ 1991 ـ ص 37 .

17) الدكتور ـ م حمدان : أعلام الإعلام في تونس ـ م س ـ ص 37 .

18) حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة في تونس ـ المعهد الوطني للتراث والدار التونسية للنشر ـ تونس ـ 1994 ـ ص 216 .

19) مدرسة باردو الحربية ـ م س ـ ص 112 .

20) احمد ابن أبي الضياف ـ اتحاف أهل الزمان ـ م س ـ جزء : 3 ـ تحقيق الدكتور أحمد الطويلي ـ ص 114 .

21) محمد بن الأصفر ـ التاريخ والقانون والعدالة (1) ـ القانون الوضعي في دولة اسلامية ـ م س ـ ص 17 .

22) MONGI SMIDA : consules et consulais de tunisie : imprimerie d'orcent tunis 1991 p 41

23) المنجي صميدة ـ القناصل والقنصليات في البلاد التونسية (بالفرنسية) م س ـ صص 40 و 46 وغيرهما .

24) A- AKOUN et autres : Dictionnaire de politique ; le present en question la- rousse - paris 1979 p 107 :

25) دكتور حسين الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار والوثائق ـ الدار الفنية للتنظيم والتوزيع ـ القاهرة ـ 1989 ص 322 .

26) د . حسن الباشا ـ الألقاب الإسلامية ـ م س ص 323 .

27) مولاي بالحميسي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1981 ص 11

28) Sadok zmerli : Figures tunisiennes les precurseurs editions bouslama tunis 2 eme edition 1979 p 49 :

29) اقرأ ملخص قضية كستلنيوفو في بحثنا المشار إليه في الإحالة رقم 09 .

30) سنستعمل المعلومات الواردة في كتاب احصاء وتلخيص لوثائق خير الدين الخاصة للأستاذين أحمد عبد السلام وحسين الحدّاد الجامعة التونسية ـ مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والإجتماعية سلسلة وثائق عدد 2 ـ تونس 1982 صص 145 ـ 247 وسنصطلح على هذا المرجع بعبارة « وثائق خير الدين »

31) الجديدة : معتمدية بولاية اريانة ، على بعد 24 كلمترا من تونس العاصمة

32) الدكتور أحمد عبد السلام : مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ 1987 ص 47 .

33) د . أحمد عبد السلام : مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية ـ م س ـ ص 47 .

34) لم تعد هذه المادة اجبارية في تونس بمقتضى القانون الجديد عدد 1157 لسنة 1994 المؤرخ في 23 ماي 1994 .

35) وثائق خير الدين : ص 158 ـ ملف 48 .

36) وثائق خير الدين ـ صفحة 157 ـ ملف 44 .

37) وثائق خير الدين ـ صص 155 و 156 ملف 37

38) ان اللفظ الإيطالي (كاميرا ـ camera) يعني الغرفة وعندما بعث البرلمان أعطى له اسم الغرفة (كاميرا) ونطقها التونسيون (قمرة) حتى أصبح الناس في تونس وهم يتوهمون بعضهم بعضا بالويل يقولون « اشكي للقمره » ولم تتوار هذه العبارة إلا بظهور عبارة « اشكي للعروي » أي الصحفي عبد العزيز العروي .... وقد انتشرت الصيغة الإيطالية اليوم في العالم فالبرلمانات وحيدة الغرفة تسمى في القانون الدستوري (مونوكاميريزم MONOCAMERISME) والبرلمانات ذات الغرفتين تسمى (بيكاميريزم BICAMERISME) .

39) وثائق خير الدين ـ صفحة 155 ـ الملف 36 .

40) وثائق خير الدين ـ صفحة 156 ـ الملفان : 38 و39 .

41) وثائق خير الدين ـ صفحة 166 ـ الملف 86 .

42) د . أحمد عبد السلام ـ مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية م س صفحة 167 .

43) محمد بن الأصفر : التاريخ ، القانون والصحافة ـ القانون الوضعي في بلد اسلامي ـ م س ص 17 .

44) حفناوي عمايريه : الصحافة وتجديد الثقافة ـ م س صص 78 و 79

45) د . أحمد عبد السلام : مواقف اصلاحية في تونس ـ م س صص 48 و 49 .

46) وثائق خير الدين : صفحة 167 ـ الملف 87 .

47) وثائق خير الدين : صفحة 167 ـ الملف 88 .

48) حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة ـ م س ص 79

49) حفناوي عمايرية : الصحافة .... م س ـ صص 79 و 80)

50) محمد بيرم الخامس التونسي ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1303 هـ ـ الجزء 3 ـ صص 2 و 3 .

وكـــلاء الســـوق

دراسة في اندغام الاقتصاد المحلي في الاقتصاد العالمي

بقلم : محمد بالرّاشد

ثمّة ظواهر تبرز من فترة إلى أخرى بالرّيف التونسي ، وهذه الظواهر وإن ـ كانت تدل على عمق التحولات التي يعيشها هذا الريف منذ مطلع الاستقلال ـ فانها تشير إلى مدى التحوّل في بنية معيّنة من بنى الريف ونعني بها في هذه المحاولة البنية الاقتصادية .

قد يبدو السؤال وجيها : لماذا المستوى الاقتصادي بالذات ؟

المستوى الاقتصادي هو أكثر المستويات وضوحا وتجليا وبروزا وبالتالي فإن تبيّن آثار عمليات التحوّل أمر أيسر من تبيّن ذات الآثار في المستوى الثقافي أو الذهني . ثم إنّ التأثير في المستوى الاقتصادي هو في حقيقة الأمر تأثير في اليومي ، في حياة الريفيين اليومية . ذلك أن التغيرات في الذهنية ، في الثقافة لن تتخذ صبغة رسمية أي شرعيّة إلاّ عندما تحول إلى واقع ملموس . لكن لابدّ من لفت النظر إلى أن اختيار المستوى الاقتصادي لا يعني بالمرة أنه العامل الفاعل بل إنه جزء من عوامل فاعلة تؤثر وتتأثر بعلاقاتها فيما بينها . فتبين التحولات في البنى الذهنية قد تتبينه من خلال المستوى الاقتصادي والعكس صحيح .

نعود لنشير إلى أن هذه المحاولة تطمح إلى تبيّن تزايد اندماج « السوق الريفية » بالسوق العالمية ونقصد بالأولى الاقتصادي الريفي ـ وتحديدا بالجنوب الشرقي التونسي ـ بينما نعني بالثانية الاقتصاد العالمي . فالمعروف أن منطقة الجنوب الشرقي التونسي كانت وإلى فترة قريبة في استقلال نسبي لا عن الإقتصاد العالمي فحسب بل وعن الاقتصاد الوطني أيضا .

ويعود منطلق الدراسة إلى ملاحظتين أو بالأحرى إلى ظاهرتين الأولى صيفية وتتمثل في تسويق العقرب ، صيد العقرب وبيعها . أما الثانية فشتوية وتتجسد في تسويق « الرّفاس » مع فارق بسيط هو مناسباتية الظاهرة الثانية ، فهذه النبتة لا تظهر إلا في السنوات الممطرة وتحديدا تلك السنوات التي تنزل بها الأمطار بغزارة في الخريف . أما الأولى فهي سنوية الحضور ـ في سنوات الجفاف كماً في سنوات الخصب ـ ، والاشكالية التي تطرح هنا هي التالية : ما مبرر تسويق العقرب أو الرّفاس ؟

فمما لا شك فيه أن وراء ظاهرة التسويق دوافع لا بد من البحث فيها والوقوف عندها عسانا بذلك نجد الاطار الشامل لمثل هذه الظاهرة الجديدة . لكن في البداية لا بد من تحديد معنى وكلاء السوق . ومعنى اندغام الاقتصاد المحلي في الاقتصاد العالمي .

* وكلاء السوق :

مصطلح أخذ عن فرديناند بروديل ، وقد استعمله في سياق حديثه عن الدكاكين التي تنتشر في الأرياف حيث يقول : « أما الدكان فيعتبر وكيلا لإقتصاد السوق بشكل بيّن فإما أن يبيع ما

يصنع فيكون بالتالي حرفيا ركانيا أو أنه يبيع ما ينتجه الآخرون فيدخل للتوُ في مرتبة التجار » (1) . على هذا الأساس تم اعتبار عملية تسويق العقرب والرّفاس عملية تجارية يسوق من خلالها منتوج المنطقة ، تسويق الحشرة والنبات قد يبو غريبا لأهالي المنطقة لفترة غير بعيدة يكفي ان نذكر بموقفهم من الجراد « فالجراد أولى أن يصاد لا يباد » .

لقد تغلغل إقتصاد النقد في أصعدة الحياة للجنوب الشرقي وفي ذلك دلائل عديدة سنسعى تباعا إلى الوقوف عندها .

*** إندغام الإقتصاد المحلي في الإقتصاد العالمي :**

مصطلح ماخوذ (أو بالأحرى مجموعة مفاهيم) عن هويكينز « يفترض الطراز ان يكون للمجتمع الريفي موقعا مختلفا في المجتمع ككل متنقلا من الاكتفاء الذاتي النسبي إلى موقع تام الإندغام في الكلّ الأوسع ، تفصح عنه الدولة كوظيفة لدور التكوين الطبقي الاجتماعي الاقتصادي أما القسم الآخر من العملية فهو إندغام المجتمع القومي في منظومة الإقتصاد العالمي » (2)

عملية الاندغام هذه تحمل بعدين أولهما نعني به فقدان المجتمع المحلي (ت الريفي) إستقلاليته النسبية ، لم يعد يبحث عن الاكتفاء الذاتي ، بل صار على علاقة بالمجتمع المديني ومن خلاله بات مندمجا في الإقتصاد الوطني . أما البعد الثاني فنعني به اندماج الوطني في العالمي وهو ما نلاحظه اليوم أمام الإجراءات التي تتخذ من فترة لأخرى بغاية تجاوز الإجراءات الحمائية التي كانت تلتجئ إليها الدول حماية لمنتوجاتها الوطنية ، كما نلاحظه أيضا من خلال اتفاقية الشراكة كالاتفاق المبرم بين تونس والمجموعة الاروبية .

ضمن إطار ترويج المنتوج المحلي واندماج المحلي في الوطني والوطني في العالمي سننظر إلى مسالة ترويج العقرب والرّفاس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*** تسويق العقرب :**

برزت هذه الظاهرة منذ أوائل السبعينات وتحديدا في بني خداش من ولاية مدنين ، حيث يقبل الصبية منذ العطلة الصيفية وحتى نهاية شهر أوت على صيد العقارب وبيعها ، متسابقين على الفوز بالنصيب الأكبر ، أي بأكبر عدد من العقارب ، ويجد التلاميذ في صيد العقرب مصدرا للأموال ، إنّهم بذلك يمارسون شغلا أو عملا موسميا لأجل تسديد جزء من ثمن الأدوات المدرسية . هذا الإقبال على العقرب وصل ببعض التلاميذ إلى عدم التحول إلى نتائج مناظرة السيزيام كما هو الحال في الموسم الدراسي (90 ـ 91) أو في الموسم (93 ـ 94) . إنّ الإرتفاع المطرد لأسعار العقرب سنويا بما يقارب العشرين مليما جعل منها هدفا للصيادين التلاميذ .

بيع العقرب بذلك تحول إلى شغل يوفر لوازم الدراسة . لذلك يكون مركز تجميع هذه الحشرة كل أسبوع (يوم الأحد) مكتظا منذ الصباح الباكر وحتى عند القيلولة رغم شدة الحرارة . إنه صراع البائع مع الطبيعة بعد صراعه مع الحشرة . لقد مارس هؤلاء التجار الفتيان صراع البقاء في ظل تغيير الواقع من حولهم بسرعة يغريهم في ذلك السعر الذي وصل اليوم حد 100 مليم للعقارب الصغيرة والمتوسطة الحجم و 150 مليم للعقارب كبيرة الحجم .

*** تسويق الترفاس :**

ظاهرة أخذت صدى هاما في هذه السنة ولكنها تعود في بداياتها إلى مطلع التسعينات . والرّفاس نبات يشبه إلى حدّ ما نبتة البطاطا ، وهذا النبات لا يظهر إلاّ في السنوات التي تتهاطل فيها الأمطار بغزارة في فصل الخريف . ويعتبر الظاهر التونسي غنيا بهذه النبتة وخاصة في الجهة الشرقية منه (جنوب رمادة) .

لقد انتشر أهالي الجنوب بكثرة في الظاهر ، فرادى وجماعات ، بل عائلات بأسرها خلال العطل الأسبوعية والموسمية للمدارس ، فرابط البعض بالظاهر بحثا عن الرّفاس وحتى خلال أيام البيع فإن المجموعة تظلّ تبحث عن الرّفاس في الوقت الذي يذهب فيه أحد أفراد المجموعة وعادة يكون سائق الشاحنة (404 و 504 بيجو واسيوزو) لبيع المحصول والعودة بسرعة لمجموعته .

إنّ ارتفاع أسعار هذه النبتة جعلت البائعين يرفضون البيع بالتفصيل فالسعر الجملي وصل أحيانا الثلاثة دنانير . إنّه مؤشر آخر على طغيان النقد والبحث عن توفيره بأعمال موسمية غير أنه ثمة اختلافان رئيسيان بين الظاهرتين

الإختلاف الأوّل يتصل بنسق تداولهما ، فحضور العقرب موسمي ، مستمر بدون انقطاع . أما الترفاس فليس مستمرا انه نو حضور منقطع ، غير أنها تحولت من نبتة كغذاء رلى نبتة تباع وتشترى .

أمّا الإختلاف الثاني فيتصل بتجار كل بضاعة ، فالبضاعة الأولى (**العقرب**) أختص بها الصبية والتلاميذ ، أعمارهم في الجملة لم تتعدّى العشرين . أما الثانية (**الترفاس**) فتجارها من فئات مختلفة في الغالب اتخذت طابعا تجاريا .

لكن هذه الاختلافات في نسق التداول ، وفي تفاوت الأسعار ، وفي أعمار تجارهما لا تلغي القواسم المشتركة بينهما خاصة المتصلة بالعوامل التي جعلت منهما : منتوجا يباع ويشترى .

فماهي هذه العوامل ؟ وماهي نتائجها ؟

وتيرة التحول السريعة والشاملة :

تعرف منطقة الجنوب الشرقي التونسي كأي منطقة أخرى بالبلاد تحولات مست أعماقها ومختلف هياكلها ، فهذه التغيرات مثلا جعلت فضاء الرعي يتقلص لصالح الفلاحة ، لصالح الشجرة . مسارح الحيوانات تقلصت وتكاد تكون قد فقدت قرب القرى ، وحدها التخوم أي الأراضي البعيدة ظلت مشاعا ، يأتيها الرعاة من جهات مختلفة .

إن التسليم بالتوجه إلى الفلاحة ، إلى الأشجار ، يجعلنا نسلم بالاقتصاد الفلاحي القروي الذي تنتج فيه العائلة ـ من حيث المبدأ ـ حاجياتها المختلفة . لكن ما يجب الانتباه إليه هو أن القرية ـ ومن خلالها الاقتصاد القروي ـ ليست منغلقة على ذاتها إنها في اتصال بعالم المدينة ، « فهي تعترف بوجودها .. المدينة سوق لترويج منتوجها الفلاحي ، وهي فضاء مفر لشبّان القرية الذين يغادرون الريف » (2) .

إنّ انتشار التمدرس ، ووسائل النقل ، وربط القرى بالمدن عبر الطرق والهجرة الداخلية والخارجية ، جعلت إلى جانب عوامل أخرى حياة الرعي تتقلص لحساب الفلاحة ، إنّها ولادة

القرية ، اين تكون العائلة الوحدة الأساسية في الحياة الإجتماعية في القرية ، فهي الوحدة التي تدور في إطارها . حياة الفرد ولعل من ثوابت المجتمع الرعوي الانتجاعي والتي حافظ عليها بعد تحوله إلى مجتمع فلاحي تلك العلاقات الأولية القائمة على القرابة وعلاقات القرابة تعطي الأولوية للدم ، للقرابة الدموية ولصلة الرحم . ولهذا كان شكل الأسرة في عديد القرى بالجنوب الشرقي التونسي ينطبق على الأسرة الممتدة أو المتصلة .

لكن وبخلاف القرية لم يكن المجتمع الرعوي على علاقة مباشرة بالمدينة وهذا ما يبرر تغلغل طرق الحياة المدنية في القرية .

فالدكاكين منتشرة في أعماق أرياف الجنوب الشرقي التونسي ، وترويج بضاعات مدينية كمالية مثل اليوغرت والشكلاطة وانواع الحلوى والبسكويت ... هي بضائع مدينية تروج في فضاء من حيث المبدأ ينتج لأجل الاكتفاء الذاتي .

إنّ الجانب الاقتصادي للريف التونسي يتجه نحو المدينة تدريجيا ، فغزو نمط الاستهلاك المديني للقرى دفع بالأهالي إلى البحث عن سبل مختلفة لمواجهة سرعة التحول هذه وشموليته .

لذلك أقبل الصبية مثلا على بيع العقرب والأهالي عامة على الترفاس ، الكسب المادّي غاية فرضتها طرق الحياة الجديدة أي أن البنية الذهنية لساكني الأرياف بالجنوب الشرقي التونسي عرفت تبدلا ، لقد صارت مقتنعة بأن كل بضاعة تباع وتشترى والغاية توفير النقود فلا غرابة ان يفضل بعض جامعي الترفاس وباعته إستهلاك البطاطا بدلا عنه في مدة جمعه في حين أنه في الأصل معوض له . فضلا عن ذلك فإن عائلات عديدة لم تستهلك إلا ما أصابه ضرر وكأن الأمر مماثل لعملية تصدير الدقلة والبرتقال . ولا غرابة أيضا أن حزن طفل أو مجموعة أطفال على موت عقرب أو مجموعة عقارب ... إنّ في ذلك لمؤشر على مدى تغلغل اقتصاد السّوق في الريف التونسي . واتساع نطاق اقتصاد السوق لمؤشر على كونية هذا الاقتصاد ، كونية اقتصاد السوق التي فرضت تحطيم الحواجز والأدامات القمرقية ، وهي التي جعلت من القرية « جزء لا يتجزأ من مجتمع أكبر ، وهذا يعني أنها ليست منعزلة أو مستقلة أو ذات ثقافة متمايزة بذاتها فإنها ولا شك تتأثر بالاتجاهات العامة للثقافة الكلية السائدة في المجتمع الكبير » (4)

إنّ التأثر بالثقافة المدينية له جوانب ايجابية ما في ذلك شك فالناس غدوا أكثر انفتاحا على العالم وأكثر وعيا ولكن له من السلبيات ما لا يستهان به فالشباب متأثر بالحياة المدينية صار ينبذ العمل الفلاحي مثلا ... وهنا برزت مشاكل جديدة لم يألفها الإنسان القروي وراح يبحث لها عن حلول .

* ريف يعاني مشاكل جديدة :

إنّ انصراف الصبية الى صيد العقارب صيفا وانصراف الأهالي عامة رجالا ونساء وأطفالا ... إلى البحث عن الترفاس لدليل على رغبة في تفادي العديد من المشاكل المستحدثة وفي مقدمتها - الرغبة في التغلب على البطالة :

بدخول الريف بالجنوب الشرقي التونسي منظومة الاقتصاد الوطني وبارتباطه أكثر فأكثر بالمدينة كنمط حياة صار الجنوب الشرقي التونسي يعرف ظاهرة البطالة ، هذه البطالة متأتية أوّلا

من نفور الشباب من العمل الفلاحي وعجز الكهول . العجائز عن القيام بذلك العمل وأضيف إلى ذلك في السنوات الأخيرة صعوبة الهجرة إلى ما وراء البحار خاصة إلى فرسا ، فعوائق ـ الهجرة إلى الشمال حسب تعبير الطيب صالح ـ صارت عديدة لذلك بدت هذه العملية حلما صعب التحقيق .

وحتى الهجرة إلى ليبيا لم تعد لها المردودية السابقة خاصة في السنوات الأخيرة التي تعاني فيها ليبيا من الحصار الغربي . إنّ مشكل البطالة وبحدته الحالية سيصطدم برغبة في مسايرة التطور الاقتصادي وخاصة المديني منه .

ـ مسايرة نسق التطور الاقتصادي

وهذه المسايرة هي بغاية التكيف مع المسار الحياتي العام و « ينطوي التكيف على طبيعة دينامية ذلك لأن كل توافق يعتبر وقتيا ونسبيًا في المستوى الإجتماعي الذي يتحقق فيه التوازن الاجتماعي بين القوى والعوامل المتنافرة والمتصارعة . » (5)

عملية التوافق ومن خلالها عملية التوازن التي سيبحث عنها الريفيون بالجنوب الشرقي التونسي هي ناتجة عن التغير الذي عرفه مستوى المعيشة مثلا ، فالاستهلاك تضاعف والتأثر بالنمط المديني صار أكثر وضوحا وتجليا وهو ما يجعل عملية التوازن صعبة فإذا ما أخذنا إستهلاك اللحم في شهر رمضان ، فحتى موفى النصف الأول من السبعينات كان اللحم مرتبطا بمناسبتين هما ليلة منتصف رمضان وليلة السابع والعشرين ، أو استثناء عند قدوم ضيف . أما اليوم فانه صار مادة غذائية قارة طيلة الشهر .

اليوم لا يخلو مسكن من « البريك » في رمضان ومن العلويات ...

إنّ هذا التغيير في نمط الاستهلاك في الريف له تأثيرات هامة وخاصة إذا ما أخذنا بعين الإعتبار عدد الأطفال في العائلة الريفية الذي لا يقل في العادة عن ستة أطفال وهي عائلات ممتدة في مجملها . إنّ تزايد الحاجيات وتنوعها وتعددها وإرتفاع عدد أفراد العائلة الواحدة يستدعيان البحث عن موارد مالية إضافية .

ضمن هذه الموارد المالية الجديدة يمكن أن ننظر إلى عمليتي تسويق العقرب والرّفاس ورغم هذه المشاكل الجديدة التي ولجت الريف فإن النظر إلى عملية التسويق هذه ضمن تغير في جوانب حياة الرّيف بأسرها ، فالأعمال الفلاحية اليوم اتجهت إلى تغليب الآلة ، الجرارة آلة حراثة وآلة لإقامة الطوابي وإصلاحها في سني الفيضانات ... ولكن عمل هذه الآلة يقاس بزمن الجديد هو الساعة ، والساعة لها قيمة نقدية (8 دنانير) . هذا الزمن الجديد لم يألفه الريفيون سابقا ولكنهم اليوم صاروا مطالبين بالإلتزام به اليوم ـ في الريف مجال الدراسة ـ كل المنتوجات تباع وتشترى ، فالحلفاء تباع بالكغ (1 كلغ = 70 مليم) ، الصوف يباع ، فالجزة أي صوف الشاة الواحدة مسعر على الطريقة التالية :

ـ الصوف الأسود 5 دنانير

ـ الصوف الأبيض 6 دنانير

جلود الحيوانات المذبوحة تباع وتشترى ، والمنتوجات الصوفية كالبرنس والوزرة والكشابية لكنها

تباع وتشترى . لقد صار الريف جزءا من اقتصاد السوق ، السوق الوطنية أولا والكونية ثانيا وهو ما يقودنا إلى الملاحظات الختامية الآتية :

- تغلغل اقتصاد النقد ، ومن خلاله البحث عن الربح السريع يبرد إلى حد ما التوجه إلى جمع الترفاس وصيد العقرب .

- مسارح الحيوان سابقا ومجالات الحراثة كذلك ويعد الاتجاه إلى الفلاحة والفراسة خاصة صارت توظف بطريقة تضمن مردودية مالية عاجلة ومباشرة ، فالظاهر التونسي هو بالأساس فضاء رعوي ، لكن بما أنّ الرعاة الرحل في تونس مارسوا الزراعة فانهم جعلوا من هذا الفضاء مجالا للزراعة كذلك . اليوم صار هذا الفضاء يوظف للبحث عن الرفاس ، تلك النبتة الطبيعية التي لا تستدعي جهدا آخر غير جمعها إنه البحث عن الربح السريع من ناحية واستغلال الأرض لمآرب شتى مواجهة للمتغيرات الجديدة والمؤثرة ولكن ومن ناحية ثالثة العمل الفلاحي مرهق بدنيا وفكريا خاصة في مناخ يغلب عليه الجفاف ويجعل منه رهانا لذلك فإن طوقا بديلة عديدة يتمّ البحث عنها تماما كالهجرة ...

- انصراف الصبية التلاميذ إلى صيد العقارب يستدعي يقظة وحذرا وشجاعة وهي مبادئ يطمح الأولياء إلى غرسها في أبنائهم بالإضافة إلى الربح المالي وإن كان بسيطا فإنه يوفر للتلميذ جزءا صغيرا من أنواته ويعلمه في ذات الوقت معنى العمل والإعتماد على الذات .

- البضائع الجديدة مؤشرات على دخول الريف مرحلة جديدة ، إنها نهاية عزلته لا وطنيا ولا عالميا ومؤشرات على اكتساح اقتصاد السوق أخر معاقل اقتصاد الاكتفاء الذاتي والمقايضة . ولكن ذلك يجعل الريف في حاجة إلى مزيد من الخدمات سواء منها الأساسية كالصحية والمدرسية أو الخدمات الأخرى التي لا يمكن نعتها بالثانوية مثل دور الثقافة والمكتبات العمومية ودور الشباب والنوادي المختلفة .

الهوامش :

1 ـ بروديل (ف) حركية الرأسمالية ، منشورات عيون ، ترجمة محمد البكري ، ومحمد بواعيش (ص 17)

2 ـ مويكتز (ن) الطبقة والدولة في المجتمعات العربية ، المستقبل العربي عدد 109 (ص 14 / 15)

3 ـ Rocher Gy : L'organisation sociale P 131

4 ـ غيث (محمد عاطف) : دراسات في علم الاجتماع القروي (ص 11)

5 ـ سرور شلش (اسماعيل) : التغير الاجتماعي في الوطن العربي ، المستقبل العربي عدد 6 ص 57 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المربّي القيرواني
أبو الحسن القابسي (ق 4 هـ)
من خلال [الرسالة : المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين] (1)

بقلم : محمد الصادق عبد اللطيف

إطار عام :

إننا لن نتصدى في الترجمة للقابسي ، لاختلافات المؤرخين حول اسمه ولقبه ولا حول تاريخ مولده ووفاته لأن في ذلك خصام بلا فائدة ، وجدال بلا نهاية . وكل ما نقصد إليه هو استخراج صورة لحياة الرجل ، تكون وجزة ، لكن صافية ودقيقة .

فأما اسمه فهو ، كما يظهر على أول صفحة من النسخة الشمسية التي أخذتها « دار الكتب المصرية » لرسالته ، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافي المعروف بالقابسي ، الفقيه القيرواني .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أنه ولد بالقيروان سنة 324 هـ / 935 م وبها تربّى وتعلّم وعلّم ، ودفن سنة 403 هـ / 1012 م .

ونلاحظ أن من بين من تعرّض للقابسي من القدماء خلافات حول نسبته إلى قابس أو إلى القيروان ، غير أن الأرجح أن يكون موطنه القيروان وأن علاقته بقابس مجرد نسبة .

ونقرأ لابن خلكان ، أن القابسي « حج سنة ثلاث وخمسين (بعد الثلاثمائة) ، وسمع كتاب البخاري ورجع إلى القيروان ، فوصلها غداة الإربعاء أول شعبان أو ثانية سنة سبع وخمسين » فنستنتج أن الرجل لم يكن جاهلا بأساليب التعليم في الشرق .

إلاّ أن الإستقرار كان يغلب على حياة الشيخ الذي اشتغل بالتّعليم في حلقات القيروان فـ « سمع منه خلق كثير » . وذلك ما يجعله بأحوال التعليم أبصر وعلى الخوض في مشاكله أقدر .

وأطال الأقدمون ممّن تعرضوا للقابسي إلى الإشادة بمناقبه العلمية ، فحدث مثلا ابن خلكان الذي يقول « أنه كان إماما في علم الحديث ومتونه » ، وقال عنه صاحب مسالك الأبصار : « وكان حافظا للحديث والعلل » وليس لإيرادنا هاته الأقوال غاية ، سوى التدليل على أن القابسي ، كان من علماء الدين ، وذلك مما سيجعل أسلوبه ونمط تفكيره متأثرين بمذهب الفقهاء في الكتابة والبحث .

كان القابسي يشتغل بالتأليف إلى جانب نشاطه في التدريس فذكرت له جملة من المؤلفات تنحصر مواضيعها في فقه الدين . ونحن نورد فيما يلي عناوين أشهر تلك المؤلفات لنبيّن مدى اهتمام القابسي بشؤون الشريعة :

1) كتاب المهّد في الفقه وأحكام الديانة
2) كتاب المنجد من شبه التأويل
3) كتاب المنبّه للفطن عن غوائل الفتن
4) كتاب الإعتقادات
5) كتاب مناسك الحج
6) كتاب ملخص الموطأ
7) كتاب الرسالة الناصرية في الرّد على البكريه
8) كتاب الذكر والدّعاء

إلاّ أن القابسي ألّف في موضوع يمسّ الواقع دون أن يتخلّص من الدين ، فكتب الرسالة « المفصّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلّمين » وسنتخلّص عمّا قريب إلى الحديث عنها ، إذ هي موضوع دراستنا هذه .

نرجع إلى القابسي فنلاحظ أن هذا الرّجل قسّم حياته بين التّدريس والتأليف ، فكانت مليئة بالحركة والإنتاج . تلك الحركة ، وذلك النشاط الذين وددنا لو سخرا أكثر ممّا قُدّر لهما ، لحلّ مشاكل واقعية حيّة .

وعلى كل فقد ملأ القابسي حياته قبل أن يموت في سنة 403 هـ / 1012 م فكتب وكتب فيما كتب رسالة نحن نعود إليها اليوم لتطلعنا على أحوال السالفين واستقاء لما قد نجده عندهم من العبرة .

تاريخ الرسالة وموضوعها :

إن تصانيف القابسي ، وإن كانت متعددة متقاربة في الموضوع ومتحدة في الغاية . فكلها تبحث في شؤون الدين وجميعها ترمي إلى حل معضلاته . وإذا كان من بين تآليف الرجل ما يغلب فيه تصوير الواقع على البحث في مسائل التشريع ، فلن يعدو أن يكون « الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين »

فهي ، وإن كانت غايتها إبانة موقف الشرع من مشاكل التدريس ، تصف أحوال التعليم بالقيروان في القرن الرابع للهجرة .

لقد نشرها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ضمن كتابه التربية في الإسلام ثم أعاد نشرها وتحقيق أعلامها وفهارسها وترجمتها للفرنسية الأستاذ (أحمد خالد)

ومن مميّزات هاته الرسالة ، أن كان عنوانها معبّرا على موضوعها ، فنحن نعلم سلفا أن في الرسالة تفصيلا لأحوال المتعلمين وذكرا لأحكام الشرع المتعلقة بالمعلمين وتلاميذهم . ولعل القسم الأوّل من الرسالة يهمنا أكثرمن قسمها الثاني . وذلك يوافق رغبتنا في استخراج صورة واقعية للتعليم في ذلك العصر .

أما القسم الثاني فإننا نترك الإهتمام به لرجال الشرع ، ولن نأخذ منه إلاّ بقدر حاجتنا إلى ابراز هيمنة الدين على التعليم .

هذا موضوع الرسالة وذاك تاريخها ، فلنتعرّف الآن عن أغراضها .

أغراض الرسالة :

إن أول غرض قصد إليه القابسي هو الرد عن سائله إذ أننا نعرف أن الكاتب ما اختار موضوع رسالته ، وإنما هو أجاب عن أسئلة مسترشد سأله . على أن الردّ كان مطنبا لأن المجيب أراد أن يدقّق الوصف لتعليم عصره وأن يلمّ القول في أحكام المؤدّبين فيه . وتحقيقا لهاته الأغراض وتفصيلا لتلك المواضيع ، كانت الرسالة .

فما هي الطريقة التي سلكها المؤلف للبحث التربوي فيها ؟

إذا لقد صنفها في النصف الثاني من القرن الرابع ، ولم يبق الأصل وإنما بقيت منه نسخة خطية من نوعها نسخت عام 706 هـ . بخط مغربي واضح جميل موجودة الآن بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 4595 وعدد ورقاتها 97 . وقد أمر الدكتور أحمد فؤاد الأهواني بتصوير تلك النسخة وجلبها إلى مصر ، علّق عليها تعاليق ضافية ، كما أضاف إليها نص كتاب « آداب المعلمين » لمحمد بن سحنون (1)

جاء ت الرسالة المفصلة في ثلاثة أبواب بكل باب عدة فصول وهي محررة في قالب أسئلة ترد فيها أجوبة .

ويبدو أن الذي كان يلقي أسئلة على القابسي ، كان خبيرا بما يسأل ، وإنما كان يريد التدقيق والضبط في المسائل التي كان يطرحها على أبي الحسن ولعله كان شخصا خياليا . وأما أجوبة القابسي فقد كانت مفصلة وغالبا ما كان يستند فيها إلى أصـــول التشريـــع الإسلامـــي ، أي (القرآن والسنة والإجماع والقياس وعمل أهل المدينة)

وكان لا يركن إلى تحكيم العقل إلاّ قليلا ، وتلك هي طريقة الفقهاء في البحث واستنباط الأحكام .

فالقابسي كان فقيها مالكيا ، وكانت افريقية متأثرة إلى حد بعيد بالمذهب المالكي . فما كان له أن يشذ في منهاجه عن البيئة الإجتماعية التي كان يعيش فيها . من عادة القابسي أن يعتمد كثيرا أراء من تقدمه من الفقهاء والعلماء وأقوالهم . فلذلك نراه يستند إلى أراء سحنون وابنه محمد في خصوص أداب المتعلمين والمعلمين وقد زاد عليها .

لقد عالج القابسي في (رسالته) مسائل شتى لها مساس بالتعليم الإبتدائي خاصة . وحاول أن يجد لها الحلول التي كانت تقتضيها الوضعية الإجتماعية في عصره .

كان القابسي مربيا ، ولكن يبدو أنه لم يباشر التعليم الإبتدائي ، ولكن الضرورة قد مست لضبط مسائل نظام التعليم .

حيث إن التعليم كان خارجا عن السلط الحكومية التي لم يكن لها عليه نظر ولم تكن تتفق عليه إلا من كان من باب الصدقة الإجتماعية ، فرأى القابسي من واجبه أن يضبط مبادي يسير عليها الجميع مع مراعاة العرف ، وأهم المسائل التي طرقها القابسي .

إلزامية التعليم :

بعد أن أطنب المؤلف في الحديث عن وجوب تعليم القرآن مستندا في ذلك إلى آيات عديدة وأحاديث كثيرة ، تخلص إلى مسألة وجود تعليم الصبيان . وأدلته في ذلك قوية تستدرج القارئ

من فكرة إلى أخرى حتى تنتهي به إلى أن جميع الصبيان تعليمهم ضروري وواجب على المجتمع بأسره ذلك أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن لضرورتها في الصلاة . وبما أن الوالد مطالب بتعليم ابنه الدين أي القرآن والصلاة (كان حكم الولد في الدين حكم أبيه) إذ (يولد الطفل على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

فإذا لم يتيسّر للوالد أن يعلم ابنه بنفسه ، أرسله إلى الكتاب . فإذا كان الطفل يتيما يتعلم من ماله ، وإذا لم يكن له مال يتولّى أمره أقرباؤه ، وإذا لم يكن له أقرباء (فحاكم المسلمين أو صالحوا ذلك البلد ...)

وإن احتسبَ فيه المعلم فعلمه لله عزّ وجلّ فأجره - إن شاء الله يضعف في ذلك)

سئل القابسي عن حالة الوالد الذي يمتنع عن إرسال ابنه إلى الكتاب فهل للإمام أن يجبره . فأجاب بأن (ليس للإمام أن يجبره وإنما يوعظ ويؤثم)

وهكذا طرحت مسألة اجبارية التعليم على بساط النقاش منذ القرن الرابع للهجرة .

تعليم الإناث :

يحبذ القابسي تعليم البنات وحجته في ذلك قوله صلى الله إليه عليه وسلّم « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلّمها وأحسن تعليمها وأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران . هذا فيما يتعلق بالإماء فما بالكم بالبنات الحرائر ، ولكن نرى القابسي يستدرك في مكان آخر ويحترز فيقول = (وأمّا تعليم الأنثى القرآن والسنة والعلم فهو من صالحها . فأما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبه فهو مخوف عليها)

والملاحظ أن المجتمع الإسلامي لم يكن ليرى حرجا في تعليم الإناث العلوم والشعر والدليل على ذلك كثرة النساء الشاعرات في عصر القابسي .

والقابسي يرى رأي سحنون في أن : (من صالح الصبيان ومن حسن النظر لهم ألا يخلط بين الذكران والإناث) وفي هذا دليل على أن أهل الرأي لم يروا حرجا في تعليم الإناث وإنما كانوا يكرهون الخلط بين الجنسين في كتّاب واحد .

برامج التعليم في عصر القابسي :

إن البيئة الإجتماعية في عصر القابسي ، كانت بيئة دينية خالصة ، لذا نجد البرامج المدرسية تدور حول محور الدين وتهيئ الصبيان إلى الحياة الدينية .

لتقسم البرنامج الذي ذكره القابسي ، إلى قسمين : اجباري واختياري .

فالعلوم الإجبارية هي : القرآن والصلاة والدعاء والمبادئ العربية من نحو وقراءة وكتابه وأما العلوم الإختيارية فهي : الحساب وجميع النحو والعربية والشعر وأيام العرب وأخبارها (تاريخ)

شخصية المعلم :

بين القابسي واجبات المعلم والشروط التي يجب أن تتوفر فيه ، وأول واجب يفرض على المعلم هو واجب الإجتهاد . ويعلل وجوب الإجتهاد بأن التزامه لما التزم من هذا يدخل في العقود التي أمر الله سبحانه بوفائها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . فإن المعلم الذي يربي الصبيان إنما هو راع ، و (كل راع مسؤول عن رعيته) ويردف قائلا (من واجب المعلم ومن حسن رعايته

لهم أن يكون بهم رفيقا ، مستندا في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم من وُلي من أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به)

ويحذر المعلم بألا يستعمل العبس إلا عند الحاجة وبقلة . ويحذره بقوله (فكونه عبوسا أبدا لمن الفظاظة المقوتة) ويعلل المؤلف ذلك من الناحية النفسية بقوله (ويستأنس الصبيان بها فيجترؤون عليه) كما يحذره الا يتبسّط إليهم تبسط الإستئناس والا يضاحك أحدا منهم على حال) وذلك حفظا لناموسه معهم .

النظام :

يوضح القابسي : سلم العقوبات التي للمعلم أن يسلّطها على التلاميذ ، فيميّز بين العقوبات التي لها مساس بالتعليم والإجتهاد والإفادة ، والعقوبات التي تسلط لحماية الأخلاق وتحقيق حسن السلوك .

فالعقوبات الأولى منشؤها التباطؤ في الحفظ أو كثرة الأخطاء أو سوء كتابة اللوح أو تثاقل عن الإقبال على المعلم .. والعقوبات هي القول ثم التقريع بالكلام (وإذا استهل الضرب فاعلم أن الضرب من واحدة إلى ثلاث)

والقابسي يراعي في التربية الناحية النفسية إلى حد بعيد فيحذّر المعلم من الشتم وسبّ العوض كقوله (يا مسخ ، يا قرد . فلا يفعل هذا وإلا ما كان مثله في القبح) ويحذر المعلم من أن يسلط العقاب وهو غاضب قياسا على ما نهى عنه الرسول ، إذ قال : لا يقضي القاضي وهو غضبان) وأما العقوبات التي لها مساس بالنظام والسلوك (فإن اكتسب الصبي جرما من أذى أو لعب وهروب عن الكتاب وإدمان البطالة) فإن العقاب قد يرتفع من ثلاث ضربات إلى العشر أو أكثر إن كان الصبيّ بالغا . ولكن في هذه الصورة الأخيرة لابدّ من استشارة الأولياء وموافقتهم على العقاب . ويحذر من الضرب على الرأس أو غيره من أماكن الجسم (فالضرب في الرجلين أمن) ويحذر القابسي المعلم من أن يحرم الطفل من طعامه وشرابه ، عقابا له .

ومن واجب المعلم أن يعدل بينهم في التعليم وإلا يفضل بعضهم على بعض ، وإنما تفاضلوا في الجهد إلا في ساعة راحته .

تربية شخصية :

بالرغم من أن التعليم كان لفظيا آمرا ، حيث إنه كان يهدف إلى إعداد المسلم الخالص شخصية الطفل كانت محترمة في الكتاتيب .

فالقابسي يرى أن يؤدي الصبيان أعمالا لها فائدة في تخريجهم . من ذلك أنه لا مانعا من أن يكتب الصّبي الرسائل للناس ، فيقول : (ولا بأس وهذا مما يخرج الصبي إذا كتب الرسائل) كما أن المؤلف يحبذ أن يعلم الصبيان بعضهم بعضا حيث يقول : (لا يحلّ للمعلم أن يأمر أحدا أن يعلّم أحدا منهم . إلا أن يكون فيما فيه منفعة للصبي في تخريجه) .

ويرى القابسي أن يملى الأطفال على بعضهم في الوقت الذي يستغنى فيه الأطفال عن المعلم (مثل أن يصبروا في الكتابة وأملي بعضهم على بعض . إذا كان في ذلك منفعة لهم . وعلى المعلم أن يتفقد إملاء هم ، كما أنه لا يرى مانعا من أن يجعل على الصبيان عريف منهم بشرط

أن يكون المريف قد أتقن حفظ القرآن وهو مستغنى عن المعلم . وهكذا نرى القابسي يترك الحرية للصبيان لأن يقوموا بكثير من الأعمال الصالحة لتخريجهم وبذلك تنمو فيهم المواهب الملائمة لمقتضيات المجتمع .

نظام التعليم :

يبتدئ الأسبوع المدرسي في صباح يوم السبت وينتهي في عصر يوم الخميس ، وبذلك يكون يوم الجمعة يوم عطلة .

ويدرس الصبيان خلال الأسبوع القرآن والكتابة ... المذكورة في البرنامج . وتوزيع هذه العلوم على اليوم المدرسي ، يجري على النظام التالي :

1) يدرس الصبيان القرآن من أول اليوم من وقت مبكر إلى الضحى

2) ينصرفون إلى بيوتهم لتناول الغذاء ، ويعودون بعد صلاة الظهر (وصلاة الظهر عند المالكية تكون حوالي الساعة الثالثة)

4) تدرس بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر والحساب وأيام العرب ، من بعد الظهر إلى آخر النهار .

5) تخصيص عشية الإربعاء وصباح الخميس لعرض المحفوظ وللتخاير بين الطلاب .

وقد أوصى القابسي ، المعلمين بعدم حرمان الصبي الإنصراف إلى بيته لتناول الغذاء . وأما العطل الأخرى فكانت قليلة ، ذلك أن الصبيان كانوا يعطلون بمناسبة الأعياد والختم وعطلة عيد الفطر كانت تتراوح بين يوم وثلاثة أيام . وعطلة عيد الإضحى كانت تدوم من 3 أيام إلى خمسة وأما الختمة فلا يعطل لها أكثر من يوم واحد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطريقة :

كانت طريقة التدريس تعتمد الإملاء والحفظ والاستذكار والتخاير (أي التنافس) ذلك أن الأصل في التعليم هو القرآن الذي يجب حفظه بألفاظه دون أي تحريف . وللوصول إلى جودة الحفظ يرى القابسي طرقا ثلاثا : التكرار والميل والفهم) ويتبيّن مراحل الذاكرة الأساسية وهي (الحفظ والوعي والإسترجاع) ولا يتمّ الإسترجاع بكثرة التكرار . وأما الميل فهي الرغبة في الحفظ فيجب على المعلم أن يثيرها في نفس الطفل .

الإحالات:

1) طبعت سنة 1955 بدار احياء العربية ـ القاهرة ضمن كتاب (التربية في الإسلام)

2) ابراهيم التوزري (التربية في تونس)

2) اعاد نشرها وتحقيق نصوصها وترجمتها للفرنسيّة الأستاذ : أحمد خالد (تونس) الدار العربية للكتاب .

علاقة الفن بالتحليل النفسي

بقلم : محمود بلقاسم

إذا نظرنا عن بعد إلى كلّ من الفن والتحليل النفسي فإننا لا نجد ظاهريًا أيّة علاقة بينهما ، إذ أن الفن مثلا يعتبر ميدان الإبداع والخلق والإنتاج يبرز فيه الإنسان ما يمكن أن ينشيء المعنى والدلالة في علاقته بالآخر وبالعالم .

بيد أن التحليل منهج يقوم في بعض جوانبه على إمكانية تذكر الماضي الطفولي لكي تجد الصراعات العاطفية اللاشعورية طريقها إلى الوعي والشعور .

لذلك تكون دراسة العلاقة بين الفن والتحليل النفسي معتمدة خاصة على إمكانية تطبيق بعض مناهج التحليل النفسي ، كالتحليل والتأويل مثلا لفهم جوانب من شخصية الفنان والربط بين إبداعاته من جهة وحياته النفسية من جهة أخرى ، ذلك أن الدراسات النفسية تحاول إثبات قدرتها على دراسته الإنسان السّوي بنفس الحذق والدقة التي أثبتت بواسطتها دراسة المرضى النفسيين ، وتبيّن كذلك كيف استطاع مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد Sigmund Freud 1856ـ 1939 تحويل بعض المفاهيم العلميّة الإكلينيكيّة والاستفادة منها في مجال التحليل والتأويل أي في مجال تأويل الإنتاج الثقافي .

ولكي نعرف عمق العلاقة الموجودة بين الإبداع الفني وشخصية الفنان لابد أولا من الإشارة إلى دور الفن إذ لا نستطيع تصوّر واقع يغيب الوسيط بين الإنسان والآخر والعالم لذلك يقوم الفن بهذه الوظيفة لما في الواقع من سلبيّة وضبابيّة تكبّل الإنسان وتحول دون تبليغه لأفكاره الأكثر عمقا ، فالحضارة حسب فرويد تحاول كسب الإنسان وادماجه في علاقات إجتماعية على حساب غرائزه ونزوعاته اللاواعية (1) .

لذلك يحاول الفنان تجاوز هذه الضغوطات عبر صراعات وإرهاصات ، فحالات الثورة لديه تلتحم مع خياله الخصب وأحلامه وأماله لكي يضع انطلاقا من رغباته المكبوتة واقعا خاصًا به فتتم بذلك نوعا من المصالحة بين منظماته النفسية من جهة والواقع الخارجي من جهة أخرى .

هكذا يقتضي الإبداع إذن هامشا من الغموض والقداسة (2) مما يجعلنا نحاول معرفة الدوافع التي تجعل الفنان قادرا على الخلق والإبداع ، فمن وجهة نظر التحليل النفسي يكون الجهاز النفسي في الإنسان منقسما إلى ثلاث منظمات :

ـ تمثل المنطقة الهامة في هذا الجهاز كل ما يحمله الكائن عند ولادته وكل ما يستطيع الإنسان كبته منذ طفولته من دوافع وغرائز جنسية منها وعدوانية لا يسمح المجتمع بإخراجها ويُسمى فرويد هذه المنطقة " اللاشعور " أو " الهو " .

ـ المنطقة الثانية في الجهاز النفسي هي منطقة " الوعي " أو " الأنا " وتتكون من الأفكار التي تخرج على سطح الوعي والشعور وتكون وظيفة هذه المنطقة هي التوفيق بين الرغبات المكبوتة في

اللاشعور من جهة وبين متطلبات العالم الخارجي من جهة أخرى .

ـ أمّا المنطقة الثالثة فيسمّيها فرويد بـ " الأنا الأعلى " وتمثل ما يشبه التّرسّب طوال فترة الطفولة التي يجتازها الفرد وهو في حالة تبعيّة لوالديه ، متأثرا فيها بالقيم الأخلاقية والإجتماعية التي يأخذها عبر التربية .

نلاحظ إذن من خلال هذا التقسيم الفرويدي للجهاز النفسي أن هذه المناطق يتمازج فيها ما هو فيزيولوجي طبيعي بما هو تاريخي بحيث يكون الإنسان السوي حسب فرويد هو الذي يستطيع جهازه النفسي التوفيق بين هذه المنظمات الثلاث ، فينتج عن تناسقها نوع من التوازن النفسي والعاطفي ، ويكون في ضغط أحدها على الآخر واضطراب في عملها فينشأ بسبب ذلك بعض الأمراض النفسية مثل العصاب أو الهستيريا ... هذه الأمراض تنتج خاصة عن عدم إحكام التوفيق بين الدوافع المكبوتة في اللاشعور من جهة ومتطلبات " الأنا الأعلى " من جهة أخرى ، فالمكبوت يحاول غالبا الخروج عبر وسائل مقنعة فيتجلى في الأحلام مثلا ، فتكون الأحلام تحقيقا مقنعا لرغبات مكبوتة ، وتدل كذلك الهفوات في الأفعال وزلات اللسان على وجود دوافع ونوايا يريد الفرد إخفاءها عن اللاشعور .

لكن ما يُميّز وسائل التوفيق هذه هو كونها نرجسيّة أي أنها تخص صاحبها فقط ، فهي إذن إغراء وتعويض عن ذلك التوتر العاطفي الذي يحسّه عادة الفرد .

هكذا نجد أن الفنان هو الذي يتميز إنطلاقا من قدرته على الإعلاء (3) ، بتحويل الدوافع الجنسيّة الأصلية المكبوتة عادة في " الهو " والتي تصارع ضغط العالم الخارجي أي ضغط القيم الأخلاقيّة والإجتماعية ، وبنقل هذه الدوافع إلى منتجات ثقافية تكون مقبولة من طرف المجتمع .

فقابلية الإعلاء عند الفنان هي التي تميزه عن غيره من الناس ذلك أن الفنان عند فرويد يجانب العصابي ويلتقي به نفسيًا في بعض الجوانب ، منها ما يمثّل هروبا من سلبيّة الواقع الذي لا يُرضي « ذلك أن الواقع الثابت لا يفي بالحاجة في نهاية المطاف رغم ما فيه من كثافة ، ثم إننا لا نرضى بأي واقع معطى حتى وإن كان رفيعا » (4) لذلك يكون عدم الرضى بما هو موجود في الواقع دليل على بداية صراع بين متطلبات " الأنا الأعلى " أي العالم الخارجي من جهة الرغبات المكبوتة في " الهو " من جهة أخرى ، وهذا ما يدعو بالفنان والعصابي على حد السواء إلى اللجوء إلى عالم الخيال .

لكن رهافة الحس الموجودة عند الفنان تجعله يستغل عالم الخيال باعتبار « أن الخيال بفعل إلحاح الغرائز يصور لنا عوالم وهمية تبعث الحماس في النفس وتدعمها » (5) فيستفيد بعد ذلك الفنان من قدرته على الإعلاء ويرجع إلى الواقع الذي قد هرب منه سابقا وذلك عن طريق الأعمال الفنية والإبداع الثقافي الذي بقدر ما يكون تعويضا عن سلبية الواقع وإشباعا خياليًا ذاتيًا ، بقدر ما يثير اهتمام الآخر ويساعده على تفريج الرغبات المكبوتة .

إذا كانت هذه هي أسباب الإبداع الثقافي والفني حسب فرويد فإن العلاقة الحقيقية بين الفنّ والتحليل النّفسي تكمن خاصة في الدور الذي يقوم به التحليل النفسي إذ أنه « يأخذ العلاقات المتبادلة بين ما تأثر به الفنان في حياته وخبراته العارضة ومنتجاته ويستخلص منها نفسيته وما

يعتمل فيها من دوافع » (6) أي أن التحليل النفسي يحاول إيجاد العلاقة الكامنة بين حياة الفنان النفسية من جهة وإنتاجاته الفنية من جهة أخرى ، وقد حاول فرويد دراسة بعض الفنانين لإبراز مدى وثاقة هذه العلاقة .

فقد حاول مثلا في مجال الأدب تحليل قصة الكاتب الالماني Wilhem < La Gradiva> Jensen الصادرة سنة 1903 حيث قارب بين بطل القصة وأحلامه من جهة ، وحياة هذا الكاتب النفسية وطفولته من جهة أخرى (7) وقد استطاع كذلك دراسة أهداف الإبداع الأدبي وخصوصياته فالنص الأدبي السردي بالنسبة إليه يعبّر عن صراعات يحاول !الكاتب التعبير عنها بصفة رمزية ، فيجد المحلل النفسي بذلك متعة في فضح المسكوت عنه وبالتالي إرجاع هذه الرموز إلى الماضي الطفولي وإلى الدوافع الجنسية المكبوتة لأن « الفنان يعرف كيف يعطي لأحلام اليقضة أشكالا بحيث تفقد هذه الأحلام علاقتها بشخصيته » (8)

لذلك تكون مهمة المحلل النفسي إذن هي عدم إهمال أدق التفاصيل التي تخص الفتحات الفنية حتى يسهل إنطلاقا منها معرفة ملامح شخصية الفنان نجد هذه الدقة في دراسة فرويد لتمثال موسى للنّحات الإيطالي ميخائيل أنجلو Michel Angeويمثل وضع التّمثال لحظة من لحظات الغضب التي مرّ بها النبي موسى في تعامله مع شعبه ، وقد حاول فرويد من خلال تحليله لهذا التمثال تجاوز ما تعنيه الرموز وبالتالي استخلاص بعض ملامح شخصية الفنان ، وقد حاول فرويد كذلك دراسة حياة الفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي إنطلاقا من منتجاته الفنية وفي هذا الإطار استطاع ان يبيّن عند دراسته للوحتي " الجوكندا " والقديسة "أنّا مع العذراء والطفل " خصوصيات حياة ليونارد الجنسية والعاطفية أي العلاقة الحميمة التي كانت تربطه بأمه ، والحنان المفرط الذي كانت تكنّه الأم لابنها كتعويض عن الأب المفقود .

بيد أن التحليل النفسي لا يكتفي فقط بتحليل وتأويل المنتجات الفنية بل يتعدّاها لكي يهتم بالعلاقة الموجودة بين طفولة الفنّان وخصوصياتها من جهة ومدى اصطباغ هذه الطفولة في منتجات الفنان ، أي أن فرويد ينطلق عكسيا مما قد تأثر به الفنان في طفولته من عقد أو رواسب قد يكون لها أثر ما في منتجاته الفنيّة ، وقد اتخذ فرويد من ليونارد، دافينشي كذلك موضوعا للدراسة مستندا في ذلك إلى ذكريات طفولته (9) وقد استطاع فرويد فكّ رموز هذه الذكرى بإرجاعها إلى عديد الاسباب منها ما هو موضوعي ومنها ما هو ذاتي (10) وكذلك بمقاربتها بالأسطورة المصرية ودلالاتها المتعددة .

هكذا نستخلص إذن من كل ما سبق أن التحليل النفسي إستطاع تحليل وتأويل الظواهر الصحيّة بنفس الدقة والحدة التي درس بواسطتها الظواهر المرضية إذ أنه استطاع الابتعاد عن المثالية وبالتالي على الذاتية الفنية مع تبيان الجانب الإجتماعي في الإبداع باعتبار أن الفن أصبح بالنسبة إليه وسيطا بين المبدع من جهة والمجتمع من جهة أخرى .

لكن أسئلة عديدة تبقى قائمة في هذا المجال إذ أن التحليل النفسي لا يستطيع مثلا أن يكشف عن أصل موهبة الفنان وتوظيفها في أسلوبه الفني ، يقول فرويد في هذا المجال « الموهبة الفنية وقابلية استغلالها في الإنتاج الفني مرتبطة أساسا بمفهوم الإعلاء ، ولكن يجب أن نصرّح أن

الوظيفة الفنية لا تدخل في مجال التحليل النفسي » (11) . وهذا ما أكده كذلك أحد روّاد مدرسته فرانكفورت « تيودور أدورنو » حين أكد أن النظرية التحليلية تحاول حصر الإبداع في جوانبه الذاتية ، معتقدة أنه وليد لحظات تنقضي بزوال أسباب وجودها ، متناسية ما يميّز الخلق الفني من موضوعية وتناسق في الأشكال والمضامين ، فالنظرية التحليلية إذن حسب أدورنو لا تستطيع إعطاء نا نظرة متكاملة وحقيقية لعلاقة الفنان بالإبداع الفني (12)

لذلك فنحن نعتقد أن الصراعات النفسية ليست الأسباب الوحيدة التي تدفع للخلق والإبداع إذ قد يحول دون ذلك مثلا طبيعة النظام الإقتصادي الذي قد لا يترك لبعض الأفراد أوقات فراغ تسمح لهم بالإبداع ، فصعوبة مجابهة مشاكل الحياة اليومية تجعل العامل يستغل أوقات فراغه في القيام بساعات إظافية حتى تستطيع الزيادة في أجرته وتلبية بعض رغباته ، فالإبداع لا يعرف الانتقاء إذ لو وفرنا الظروف التي تمكنه من الإبداع لتمكن العامل من الإبداع في محيط عمله على الأقل .

هكذا يكون الإبداع صراعا ضد الموت ، ضد اللحظة المنقضية وتأصيلا للذات وإمكانية للتجاوز وبديلا عن الخوف والضعف وقهرا للعدم . ودعوة للخلود والعظمة .

إحالات:

1) راجع كتاب :Sigmund Freud :<< Malaise dans la civilisation>> PUF .1979

2) راجع :Olivier FLOURNOY: in nicos nicolaidis : créativité et / ou symptôme éd: clancier - guenaud Paris 1982

3) راجع J . La planche et P.B Pontalis <<Vocabulaire de la psychanalyse >> PUF 1967

4) Paul Klee << Théoris de l'art Moderne >> ed .Gauthier -Paris 1982 P. 40 - 41

5) المصدر نفسه ص 41 - 40

6) S. Freud << Ma vie et la psychanalyse >> éd Gallimard Paris 1968 P 79 - 80

7) S.Freud << Délire et rêves dans la << Gradiva >>de Jensen >>Gallimard Paris 1949

8) S.Freud cité par J.L Baudry in << Freud et la creation litteraire >> Revue << tel que >> 1968 n 32

9) S.Freud << Ma vie et la psychanalyse >> ed Gallimard 1968 P 79 - 80

10) S.Freud << Un Souvenir d'enfance de leonard de vinci >> Gallinard Paris 1977

11) S.Freud in Nicos Nicolaidis << Creativité et /ou symptôme >> op. cit P 9.

12) T.W.ADORNO << Théorie ésthétique >> éd. KLINCKSIECK- Paris 1974 .

الفاجعة البودليرية في أزهار الشر

بقلم : خالد رمّاوي

فاتحـــــة : إن بودلير : هو الشخص الذي اختار أن يرى ذاته كما لـــو أنه شخص آخـــر ، وحـــياته ليست ســوى قصـــة هـــذا الإخفـــاق » **جان بول سارتر**

[1]

تحفل الأزهار البودليرية بفجيعة الآتي ... تقطر ألما ينزفه بشروره الوجع .. يتنفس صهيـــل الأرق وانتحاب الجوى ... وفسحة القبور المترامية حتى الضيق المنسابة في حياة / الموت ... .. تتفجّع خرائب الشر والألم الموحش المطبّق على زهورنا الندية فتتهدّل جنان البؤس ، وعبير الشؤم وجحيم الإخفاق الذي يتفيأ ذكرى نحيب ومرارة معتقة « أزهار الشر » (*) ألم يفوق جرح العالم ونزيف لا ينضب إلا بحتفنا ببودلير (**) يرتاد طقوس الفجيعة المتقاطرة عذابات وجراحات نازفة كإخفاقنا المستمر فهو قد وضع كما يقول هذه الأزهار موضع الألم « إنني وضعت في هذا الديوان فكري فقلبي ، ديانتي وبغضائي » هذه الزهور المنداحة بؤسا تعذيبا خارقا للذات المكابدة وفضيحة لا مثيل لها واعترافا موغلا في الصدق .

أنـــا الجـــرح والسكـــين !

.....

والضحيـــــة والجـــــلاد !

ثم يتساءل :

ألست أنـــا لحنـــا نشـــازا !

ص 175

وفي هذا الموضع قال سارتر في كتابه « بودلير » انه رجل عاكف ، عاكف على ذاته ، مثل زميس »

الألم الذاتي حطام لا حدود له ، ينبعث من أوردة الندم والإخفاق الذي يلاحق عنوبة الخراب والسأم وإنبعاث التهاوي المغتسل في انتحار العذابات داخل أفئدة الموت .

وفي هذا السير الجنائزي « والسأم البحث عن العيش الذي يتحدث عنه » فاليري :

كنت أحسب أنني أتنشق

عبير دمك

ما أجمل الشموس في الأمسيات الدافئة ! ص 90

وهكذا يتجلى السأم المحيط اعتكاف على اللاحياة يقول سارتر « وهكذا فإن السأم هو إحساس ميتافيزيقي ، المشهد الطبيعي الداخلي لبودلير والمادة الخالدة التي صنعت منها بهجاته

وهيجاناته العاصفة وآلامه »

(2)

يقول بودلير « ما أهمية مايمكن أن تكون الحقيقة الواقعية الموجودة خارج ذاتي ، إذا كانت قد ساعدتني على العيش وعلى الإحساس بأنني أنا ما أنا كائن »

ذات الشاعر مذعورة تبحث عن عذابات تلوذ إليها الخواطر المعذّبة ، والممزوجة بالمرارة الفاترة ، تعود إلى الطفولة البائسة الذي عاشها بودلير في استحالة البراءة :

يا طفولتي يا شقوتي
فكري في عذوبة
أن نذهب إلى هناك لنعيش معا !
أن نحب قدر ما نشاء
أن نحب ونموت ص 125

في براعم الزهور المؤلمة النديّة / ضياء / حب / موت / حياة تضحك هازئة تداعب خراب الرّوح واحتراق صدى المطبق على صمتنا الأبدي وانتعّار لا مثيل له للفرح القادم
بعيدا عن الأضرحة الشهيرة
نحو مقبرة معزولة
يمضي قلبي ، مثل طبل محجّب
قارعا ألحان سير جنائزية ! ص 43

طفولة بودلير قاسية ، مسكونة بالأرق والشرور وخرائب الذكرى يقول « ومثل طفولة في هذه المراودة من عذابات الأرق ، ومتاهات البؤس الذي يتخاطف كلمات تشبه آنية الشر وتجلي الزهور الحالمة إلى اللاّنهاية .

(3)

المرأة عند بودلير أهرة يانعة تتمطّر بالحب ، وتتزيّن باللازورد المشحون بالذكرى اليافعة بالوداد وذكرى العاشقين ...

أتوسل برحمتك ، أنت الوحيدة
التي أحب
من غسق اللّجة المعتمة التي
سقط فيها قلبي ص 78

يقول في الحب « هو رغبة الإنسان في الخروج من نفسه » والحب والمرأة يتوشحان ، يترادان بعالم بودلير يسكنان لجة الشقاء والعذاب والتفجّع البائس ، كالمدن المنحلة .. كانهيار عالم الواقع بما فيه من مكر ورتابة وخراب دائم وهنا نتذكر كلام رامبو « لابد من خراب ضروري »

شذى يسبح حول صدرك العاري !
أيها الجمال ، يا بلية الأرواح القاسية ، أنت تريد ذلك

بعينيك الفاريتين ، المبرقتين مثل أعياد

أحرق هذا المزق التي وقرتها البهائم ص 132

فالجمال حسب ما رسمه بودلير في هذه التجليات المتداعية غبطة وحرقة تطفح بالشعرية ، هو « ليس سوى نتاج الشعور بانحرافاتنا » كما يقول سفالدور .

... والجمال لصيق ، ملتحم ، متراس بأجراس العذاب وتوهّج الدّمار وخرائب الذكرى والإنصات لنشاز الوقت وتفتت القلب وإغراقه في الفجيعة والموت .

الداء والموت يحيلان رمادا

النار التي توهجت من أجلنا

وهاتين العينين الواسعتين الحارّتين الناعمتين

وهذا الثغر حيث غرق قلبي كله ص 96

تنهض اللّغة عذابات زهور ألم ، وشرور عطر ترتقي إلى علياء الزهور النديّة التي يداعبها شر حقيقتها وزهور حلما ، وتلاشي الأشياء من حولنا ومن حول الرعب ليتوغّل في بدنه المتهاوي المتساقط من ثمار قلبنا وخرابنا الذي يخالج نفوسنا الندية ، مدار الدّمار لحظة الكتابة ضد بداية نازفة وضد نهاية لابد من حتفها إنّه لا شيء في آن وفي آن آخر كل شيء بودلير من خلال زهوره جوهر الألم وعبير الزهور .

(4)

خاتمة : يقول بودلير في خواطره المتألقة التي تضمخ أزهار الشر بديّة الفرح القادم على مهـــل .

أنا مصاص دماء قلبي

.....

أنا أحد المكتوب عليهم

بالضحك الأبدي

.....

والذين لم يعودوا يستطيعون الابتسام

إحالات:

(*) أزهار الشر : بودلير (نقلها إلى العربية : محمد عيثاني)

(**) ولد شارل بودلير في باريس في 9 أفريل 1821 وكان في السادسة من عمره حين توفي والده ، وإن الزواج السريع لوالدته مع جاك أوبيك 1828 قد دمّر حياة الولد الهادئة التي اعتادها فقد كابد رغم الظروف الصعبة على التميز في الدراسة فتحصل على الباكالوريا في عام 1839 والتقى ببلزاك وزبال وغوتيه وتيودور دوبا نقيل وفي سنة 1857 ظهرت مجموعة « أزهار الشر »

مرّة اخرى يبترني الدّهر بسهم من سهامه القاسية فابقى هكذا ابد الدّهر اكفكف
دمعة فتنهمر اخرى ... ارزء هذه المرّة بفقد أخ عزيز عليّ هو سفيان بن ضياف
وهو طالب في سنته الأخيرة من التّخرّج بكلية المهندسين بالمنستير . قلت في رثائه
هذه الأبيات القلائل والبسيطة مقارنة بسجاياه الكثيرة ومآثره العظيمة .

مأتم الكيوان

شعر : محجوب الطرابلسي

لا مرء ينجو من سها الأزمان لا سيّما من جاء للأحزان
أهل الفقيد فريسة الأشجان مثل الهشيم فريسة النّيران
نجم سما في عالم الإنسان حتّى هوى كالصّرح بالبركان
يا قصد سهم لا يعيد بثاني عين الحِمام كأعين العميان
قد بتُّ مرمى للمنا يا دائما كم قد فاستهدفت أركاني
أين أبي ، بل أين أمّي بعده كلّ أجاب لدعوة الرّحمان
إنّي لأعجب للفناء يطالنا ويطال حتّى شامخ البنيان
موت المجاهد في الحروب يروعنا ويروع أكثر في بنا الأوطان
أمودّعي السّمح الكريم تنبّهوا لرحيل برّ صادق الإيمان
أمسى يناجي اللّه قبل لقائه حتى رثاه الدّين بالقرآن
فزعت لمثواه السماء وهللت رمم القبور لمأتم السفيان
ونعت كواكب مصرع الكيوان وكذا المساجد من ذرى الآذان
أفتى ستبكيه الأصائل والضحى أمدا ويبقى أعظم الخلّان
لا لم تمت بل أنت فينا واعظ وأخير وعظك معجز الأذهان

1996/08/23

سوسة

قراءة لكتاب : « رسم » لأحمد الحمروني

بقلم : حسن غزّيل

هو مولود جديد ينضاف إلى المكتبة التونسية خاصّة وإلى دائرة الثقافة العربية عامّة ، صدر عن دار سحر للنشر بتونس ، تخيّر مؤلفه ـ الأستاذ : أحمد الحمروني ـ من الأسماء « رسم » : وهو عبارة عن مجموعة قصصية جاءت في 125 صفحة قدّم لها الباحث والأستاذ الجامعي عمر بن سالم ، وتشتمل على واحد وأربعين (41) رسما : رسمها صاحبها على امتداد عشر سنوات أو أكثر في مواقع متعدّدة : إنطلاقا من مسقط رأسه مدينة تستور وأثناء مرحلة دراسته الجامعيّة بتونس انتهاء بالأماكن التي مارس بها مهنة التدريس أخصّ بالذكر منها : عين دراهم ، الكاف ومجاز الباب ...

من خلال قراءتنا للمؤلف [رسم] ندرك أنّه جملة من الشّخوص القصصية المقتطعة من صاحبها ، المنحوتة من شخصه بل هي على حدّ تعبير عمر بن سالم « مثله تائهة في المدينة ، في شوارعها ، في مقاهيها ومحطّاتها ، في أرتالها ، في حافلاتها ، في رحابها ، في منتزهاتها ... تائهة في زمانها لا تدري في أيّ ساعة تنام ولا في أي ساعة تصحو » (1) ، وهي صفحات منتشلة من أضعاف ماض عايشه الكاتب لا يزال ينبض حيويّة ، صادرة عن وحدة في الاستفهام ونسق في محاور السؤال ، ولئن وردت نصوصها مفرّقة وقصيرة ، الواحد منها مستقل بذاته عن غيره في مستوى رسوم الشخوص وبناء الأحداث وتوظيف طرائق الكتابة وأفانين الرواية ، فإنه متى أدمنا النّظر فيها تبيّن لنا جامع يؤلّف ما تفرق من شتات معانيها ، إذ وجوه المؤالفة قائمة بينها .

يحاول صاحبه بناء وحداته اللغويّة عبر لوحات رسمية متنوّعة لينتهي إلى إعطائنا صورة حيّة عن تجربته الحياتية اليومية وعن همومه وأحلامه من ناحية أخرى ، عن بعض الحالات التي تهزّه كبطل عايش اليأس والإحباط ، النشوة والاعتزاز ، القوة والضعف ... وللامسة تجربة الكاتب عن كثب يقتضي منّا البحث تتبّع شخوصه القصصية التي سجلتها ذاكرته وخطّها قلمه على امتداد عشرية كاملة في مواضع متعددة .

1 ـ ما رسمه المؤلف في عين دراهم (بين سنة 1977 و 1982)

من خلال شخوصه القصصية [مهنة شريفة ـ في الطريق ـ رسالة من الأرشيف ـ المرآة السّاعة ...] حدّثنا الكاتب عن بداية حياته العملية في مجال التدريس بمدينة عين دراهم ، وفي طريقه اليها تمتد أحلامه ، « فيحلم بالرّفاه ، بزوجة فاتنة وفيّة و « فيلا » آمنة مشرفة على البحر » (2) يريد عبثا أن يسخر من الزّمن ، أن يشتري سيّارة فخمة ، « أن يقهر سمّار نزل أفريكا » (3) يريد أشياء وأشياء لكن سرعان ما يصحو ويدرك أنّ أحلامه سراب ، فيشكو الحظّ المنكوس ، إذ من أين له أن يحقق أحلامه وجرايته لا تكاد تغطي مصاريف الكراء والأكل

والنقل ... !!!

ثمّ تمتدّ به الذاكرة إلى الماضي القريب لمّا كان طالبا جامعيًا يشكو الفقر والخصاصة كيف لا وليس « في جيبه سوى تذكرة عشاء مستعارة ! (4) كلّ ذلك لم يحدّ من طموحه ولم يثبط من عزيمته ، فغدا « سيزيفيًا » في مصارعته الأقدار ! بل ممّا زاد الطّين بلّة أو الطنبور نغمة كما يقال ، وجدته فانبرى يبحث عن الشقّ الآخر فيلتمس تجربة عاطفية سرعان ما لفظت أنفاسها لكنها بقيت منقوشة على سطح الذّاكرة فاضحى يستأنس بطيف المحبوبة (5) عهد الحياة التلمذية .

2 ـ ما رسمه الكاتب في الكاف (بين سنة 1981 و 1985)

رصدها المؤلف وتخيّر لها من العناوين [العقارب تدور عكسا ـ نحت الحرية ـ شيء في نفسي ـ أين قدري ـ أحوال ـ رحلة في الذاكرة ـ ثرثرة الخريف ـ الرّماد ـ الدرس الأخير ...] وهي صورة أخرى تكشف لنا قلق صاحبها وتبرّمه بالحياة وقد ناهز الثلاثين من عمره فبدا « فاترا يؤذن بالكسوف ، متباطئ الحركات ، متضاعف الزفرات » (6) كلّ شيء أمامه ممجوجا تحاصرة الضوضاء والازدحام أنّى ذهب ، تختنقه « القينيا » ، عقارب ساعته تدور عكسا ، تلاحقه أسئلة رتيبة : أين كنت ؟ كيف حالك ؟ ماذا فعلت ؟ فيمنّي نفسه بالهروب من الواقع المرير ويتشوّف إلى المغاير المجهول معلّلا نفسه بالآمال « فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل »(7) لكن هل تخطّى الكاتب هذه الرتابة وهذا القلق الوجودي بعد أن ساق له القدر فتاة تعرّف عليها لتصبح زوجته وأم ولده (8).

3 ـ ما كتبه في تونس بين (سنة 1985 و 1988)

يعدّ ما رسمه الحمروني من خلال رسومه (الانتظار ـ وجهان ـ الاعتراف ـ الضباب ـ الوجه والصورة ـ الآنسة تاكسي ـ جولة ـ الغريب ـ بلا عقل ـ بلا معنى ـ شارع الحريّة ...) سجلّ ذاكرة تجارب في الحبّ بطلتها أنثى تلعب لعبة التمنّع المثير تستعين بجمال صنعته المساحيق (9) تقلب ظهر المجنّ بل قل إنّها « تعطيه من طرف اللّسان حلاوة وتروغ كما يروغ الثعلب ! » فيسعى إلى الانتقام من حوّاء التي لم يجدها في مستوى فكره وطموحه في عدة مناسبات ! (10)

4 ـ ما كتبه في تستور (بين سنة 82 و 1988)

من خلال شخوصه القصصية التي حفظتها ذاكرة الباحث بمسقط رأسه تستور ، والتي انتقى لها من العناوين(السوق ـ بركانة ماتت ـ أهل الغار ـ دبيب الحياة ـ ماكر ورقطاء ـ للموت والحياة) تتجلّى لنا قدرة صاحبها على إعادة وصف الحياة اليومية المعيشة بمدينة تستور ، منقبا عن آثارها باحثا في ثنايا تاريخها .

فبرسم (السوق) استطاع الباحث أن يوظّف اللغة توظيفا ينهض على رقّة اللّفظ وسحر العبارة ورنين الأصوات ، ليقدّم للقارئ صورة حيّة عن مختلف الأنشطة الحياتية المتواجدة بقلب المدينة (السوق) أين يتواجد العطّار ، الخبّاز ، بائع الفحم والنفط ، مصلح الدراجات ـ القماش .

الخضّار ، الشوّاي ، بنات الملاجي وهنّ يعرضن خبز الطابونة السّاخن على ركّاب السيّارات ، والمقاهي المزدحمة بالشيوخ والبطّالة الذين استنزفتهم أشغال سدّ سيدي سالم ... (11)

ولم يكن رسم الكاتب للسّوق رسما وصفيًا صرفا بل تعدّاه إلى الكشف عن الناحية المعمارية لمدينة تستور ذات الطابع الأندلسي الأنيق . ثمّ يرتحل بنا الكاتب إلى وصف شخصية عمتّه وشخصية « بركانة » ليعطينا ومضة صادقة عن نشاط المرأة داخل مملكتها على امتداد يوم كامل ، فهي التي تعتني بشؤون المنزل : من طهي وغسل ونفش صوف وترتيب ثياب وتنقية قمح وغربلة دقيق وكنس « بالمثنان » ... (12)

إذ لا تكاد تترك ساعة تمرّ دون أن تشغل بالها ويدها بعمل حتّى وإن كان حراسة للمنزل الذي لا تفارقه إلاّ الى الحمّام . فكيف لا تقوم بخدمة البيت وهي التي تخشى المعرّة من قبل جارتها بالتقصير أو بالتهاون في حق أهل بيتها ، تلك هي صورة المرأة البدوية ، ولعلّ ذلك ما أشار اليه أحمد ابن أبي الضياف في « رسالته في المرأة » (13)

وتدفعه النفس إلى استرجاع الماضي وتذكّر الحوادث الجميلة والمغامرات الخطيرة فتظلّ عالقة بذاكرته كمغامرة (أهل الغار) إذ دفعه حبّ الإطّلاع إلى تجشّم المصاعب لاكتشاف خبايا الغار ـ المتواجد بقرية عين يونس ـ فكذّب بذلك الأسطورة وأزاح النّقاب عن موقع أثري كان مطموسا في ثنايا التّاريخ ، وليس ذلك بعزيز عليه ، وقد عهدناه غيورا على التّراث « لا يتأسف إلاّ لتكسّر قرميدة ظلت تجسم التراث صامدا نابضا » (14) يلتقط صور جدران خربة ومآذن متهدمة .

لجميع ما تقدّم نقول إنّ أغلب شخوص « رسم » مستلهمة من رحلات القنص حافلة بالدلالات والمراجع التاريخية تغري القارئ بسلاسة أسلوبها ، أراد الكاتب من ورائها معالجة المسائل التالية :

- الفنّ والالتزام
- المرأة والجمال والحبّ والخيانة
- القرية والمدينة
- الفقر والثراء
- العمل والتهاون
- الحرية والغربة
- الحياة والموت ...

والحقيقة البادية أن كتاب رسم ثريّ بقضاياه قد لا يستطيع القارئ الواحد أن يلمّ بها .

الإحالات :

1 ـ احمد الحمروني ـ رسم (قصص) ـ ص 3 ـ دار سحر للنشر ـ تونس ـ ط 1 ـ 1995

2 ـ المرجع السابق ـ ص 6

3 ـ المرجع السابق ـ ص 7

4 ـ المرجع السابق ـ ص 7

البقية ص : 66

« دون وجهة نظر وهدف محدد وقصد معلوم لا يمكن للمرء أن يضع أية تصورات »

بقلم : أحمد تامر

لم يكن ظهور السينما الجديدة أمرا اعتباطيا بقدر ما هو امتداد منطقي لتطور الفنون كافة والسينما بوجه خاص تلك تمتاز بخاصية اسفنجية تمتص خبرات معظم الفنون السائدة اليوم ، لذا حملت أغلب الموجة الجديدة في السينما إحالات موضوعية إلى الواقع الذي خرجت منه بصرف النظر عما تضمنته من أفكار وما تتعرف عليه من معالجة أو وجهات النظر التي سيطرحها الفيلم المزمع تحقيقه ، ومع هذا يمكن لمتابعي السينما الجديدة التعرف على كثير من الخصائص الفنية تحديدا من خلال كبار مخرجي هذا الاتجاه وهم في معظمهم من المخرجين المهاجرين للعمل في أمريكا .

ومن تلك الخصائص الوسائل التعبيرية الجديدة عبر الإمكانات نستخلصه من الأسلوب الفني في اكتشاف المفردات السينمائية التي تغني اللغة السينمائية متبلور عملية الخلق الفني ، رغم أن حالات الاختلاف موجودة من مخرج لآخر بسبب اختلاف المشارب الثقافية وتباين الرؤية إلى العالم عند كل مخرج .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولأننا بصدد واحد من أبرز ممثلي هذا الاتجاه فلا مفر من الصعوبة التي سنواجهها في فيلـــم (الجدار) الذي إستأثر باهتمام معظم النقاد والمشاهدين لأنه في مقدمة الأفلام الأكثر تعبيرية ومعالجة تفرد بها حتى من بين أفلام المخرج نفسه .

* **بناء الفيلم : « الجدار » درس في السينما الجديدة .**

إن بناء « الجدار » قائم على عملية إبدال بين عناصر الفيلم السينمائي مما يظهر تفوق عنصر بنائي هام كالمونتاج على العناصر الأخرى حيث جعله من المهمات الأساسية التي ينبغي مراعاتها بحرص شديد يطور عملية التوليف المتصلة بالتفكير المسبق للتركيب المونتاجي العام للمشهد والروابط بين كل لقطة وأخرى وسلامة الانتقالات والحركات المتتالية .

ونلاحظ أيضا في هذا الفيلم أن الوسائل التعبيرية البصرية (التشكيل ، الكاميرا ، الإضاءة) ليست دائما وفي كل لقطة متساوية الأهمية في تحديد التكوين العام ، فالتكوين الفني المطلوب لمجرى الأحداث قد يحتم هيمنة أو بروز هذه الوسيلة أو تلك وهي بدورها مشروطة بما يمكن أن تحققه من إثارة نفسية للمشاهد وتجعله منذ اللقطات الأولى محصلة للارباك والتوتر النفسي الأمر الذي يراهن عليه المخرج (آلن باركر) وما تميز به فيلم « الجدار » بوجه خاص ، بواسطة الإيقاع السريع للمشاهد والحركة داخل الصورة يفتح (الن باركر) للمشاهد امكانيات

غير محدودة لإثارة الاهتمام والتركيز على الأشياء المصورة ليستغلها للتوصل إلى حلول تكوينية تعبيرية جديدة تحقق فروقا واضحة ومقصودة في طبيعة كل لقطة . ولا شك أن الإيقاع السريع لحركة الفيلم يعكس إلى حد ما طابع الحياة المعاصرة وما تتضمنه من انعطافات تخاطر بمصير الإنسان ، حيث يحدث هذا حالة مزاجية متوترة عند المشاهد بواسطة الصورة .

إن البناء الرمزي للفيلم ككل يهدف إلى تنفير الخطاب السينمائي استنادا إلى إشارات مقيسة تطرح نفسها منذ الوهلة الأولى بعيدا عن المباشرة تحاول أن تدفع المتفرج إلى فهم التعبير بشكل متواصل ومستمر ليصبح بإمكانه ادخال تحليل ذا طبيعة بنيوية على السياق الفيلمي على نحو معين بغية اكتشاف الخزين الدلالي للطرائق الأسلوبية المستخدمة التي شوهت ماهيتها وأبدلت أو انظمت في البناء التشكيلي للصورة وهذا بدوره قد يجيب على سؤال رولان بارت : ما إذا كان بإمكان تحويل اجراء ات الفن السينمائي ، وانتظام إلى وحدة دلالة ؟ يهدم باركر في « الجدار الميزانسين» ، الطرائق التقليدية لنسق الفيلم ((الميزانيس)) ـ التتابع ـ بحث عن وحدة فنية تأثيرية جديدة قائمة على تسريب الجو الانفعالي للفيلم إلى المشاهد في ضوء منظور الأشراك الفكري للمشاهد مع الصورة بدلالاتها وبمعيار من الشد النفسي الذي يتم عبر ادخال الغرابة والاحتراف المقصودين لتحريك سواكن المتفرج التي هي نتيجة لتراكمات سلبية شوهت منظومة الوعي لديه لتوازي بذلك أعمق التصورات في الفيلم لا سيما التي تمس مشاكل كونية إذ أن أزمة الإنسان المعاصر ليست في الأزمات والمشاكل الإجتماعية العابرة وليدة الظروف التاريخية الطارئة إذ أصبحت في الجدار مسألة الوجود والمصير البشري وسط عالم ملىء بالدمار ومؤسسات الارهاب الفتاكة فهي إذن مسألة شرعية الوجود .

هذا وإن الممثل الرئيسي في الفيلم في شبه انقطاع مع ما يسود العالم لذا فالصورة عند الن باركر هي المنقذ لرؤيته في العمل وفي هذا مؤثرات مسرحية واضحة متبادلة مع الفيلم فأغلب لقطات الجدار يمكن اعتبارها صور تشكيلية فائقة الصنعة تعتمد على مبدأ تشتيت البؤرة المركزية من خلال مكوناتها العديدة كما هي المفردات (حتى الممثل أداة لتشكيل الصورة) في مسرح الصورة وهذه العملية عند باركر تهدف إلى استثارة المعاهد ذهنيا وتخريجه من حالته الساكنة ومن البلادة والاسترخائية في حدود الاتصال عند المخرج الألماني (فاسبندر) الذي يقول عن هذه الأفلام ((انها خالية من مكان للأمل ولكنها مع هذا تبدأ بعمليات فكرية في عقل الجمهور بحيث تقوده نحو الأمل)) .

وبهذا الشكل يقوم المشاهد بتجميع أجزاء الفيلم بطريقته الخاصة كخلق تجريبي يمتلك الاستعداد الواعي لفهم العملية السينمائية الدائرة لأنه قبل ذلك كان هنا لك أثناء العمل مشاهد افتراضي وهنا يملك الحضور الحقيقي الذي يجسد امكانية التعبير التفجيري للصورة في الايصال ، وعلى ذلك الافتراض صنع باركر الجدار ، أرضا مسكونة بالاحتمالات وخطابا منفتحا يقر بتعددية القراء ة وفاعليتها فـ ((السينما)) تساهم في خلق القيم التي نعيش بها .

ـ المونتـــــاج :

أما عن المونتاج في هذا الفيلم فهو طريقة استخدام تقنية لتوظيف المسائل الفكرية على

أساس سيكولوجي تثري الاتصال بالمؤثرات الحسية وتمنحنا في تكوين المشهد إحساسا قد لا ينبع من الممثل ذاته وفي هذا لغة سينمائية هي ليست إنعكاسا للواقع وإنما افتراض البحث في هذا الواقع وفقا لرؤية تحليلية لا تتيح في الجدار القبض على موضوعة محددة يُوسم بها الفيلم كونه متحركا على نحو متزامن بدقة مع الموسيقى بطريقة تشكل سلسلة من الدلالات تتناغم في فكرتها وتقنيتها مع ما يجرى في الرسوم المتحركة الفائقة الصنعة لذا اختار المخرج أشكالا خاصة تناسب أفكاره ورؤيته من خلال الرسوم الخطية التي لا يوجد لها نظير في الواقع ويفضل أن يطور أشكالا تجريدية كلية أو جزئية لمصلحة الفكرة أو الحركة ، والبعض منها يدل دلالة ضعيفة على الواقع لقصد التشويه وموازنة الفكرة . ان بناء الفيلم يُقرّب الإحساس بالتشويش والفوضى والانتهاك الذي يعانيه الفرد في حضارة اليوم في ضوء العلاقات غير الواضحة وما تتركه المؤسسات من رعب واضطرابات نفسية ومشاعر دفينة بوسائلها التربوية المعروفة التي تدشنت عبر اتجاهات الأنظمة الفاشية التي أرادت أن تصنع الفرد المناسب لطموحها ـ وهذه العلاقة بين الفرد والسلطة أيا كانت حتى الأم كما يصوره باركر ، وهو الضليع بعلم النفس يخلق اسقاطات وارتكاسات نفسية تندفع بآليات متعددة وفي اتجاهات سادية مختلفة كرّستها مظاهر العزلة والتوحد وجو الفساد السياسي في المدينة ومصير الفرد هناك فالمخرج يواجه مهمة عسيرة قوامها ايصال رؤياه الفلسفية والأخلاقية إلى الجمهور وعكس انفعاليته وشاعريته بما يتسم بدرجة رفيعة من الدرامية المشهدية التي تضع الصراع في غني يوحد الجوانب المتكاملة إلى بعضها البعض في الاندماج العضوي بين أشد الأنواع تباينا . مدى اتساع الحياة وتغيرها إنما هو بالنسبة لمخرج الفيلم الأمر الرئيسي الذي يجب أن تتعلمه السينما ويتعين عليها تفهّمه وعبر هذا فقط يمر الطريق إلى تحليل العالم تحليلا فنيا دقيقا وعميقا . وهذاالعمق الفكري مع كمال التجسيد الفني اشترط التداخل في زمن الفيلم وتضمن الكثير من المونولوج الأمر الذي لا يوفر وحدة زمنية واضحة ظاهرة على السطح . فالارتداد بالوعي إلى حالة اللاوعي عند باركر هو نوع من إحياء الذاكرة التي نخرتها الحرب (كمفهوم فلسفي للخراب الذي لحق الإنسان وشوّه سلوكه ، وهذا يتضح في التكوينات المتحركة في المشاهد العاصفة والحادة التي تحل محل السرد البطيء . وكما يتضح اعتمد باركار المونتاج الفلسفي طريقة للفيلك وفقا لمبررات تناسب رؤيته البحته . وهذا النوع من المونتاج أشد خطورة من بين أنواع المونتاج الأخرى لأنه لم يخضع إلى قواعد ومواصفات فنية كما أنه لم يخضع للتجريبية بل هو الرؤية الفنية الابداعية للمخرج والمونتير وكاتب السيناريو وهذا المونتاج وكاتب السيناريو وهذا المونتاج يجعلنا نهتم بمدلولات اللقطة كاشفا الكثير من مشاهد الذروة . حاول الفيلم أن يعكس الكثير من مفردات ثقافة العصر والاتجاهات السائدة فيه وأن مقاربات قائمة أحالت الفيلم إلى قصة لجان بول سارتر في مجموعة « الجدار » بعنوان (طفولة زعيم) وهي تصور طبيعة العقل البشري والنفس الإنسانية في فكرة التطابق مع الذات والشعور الذي ينتاب المرء بأنه زائد عن الوجود والتي تدفع صاحبها ليكون فاشيستي بمعاداته معظم الطبقات لأن هذا العداء يكسبه احترام المحيط ، وموضوعات أخرى لا تقل أهمية حول استحالة الاتصال في الحب والجنس وأن وجوه

البشر في حقيقتها أقنعة تتستر خلفها تشوهات عنيفة تحيل الكائن إلى مسخ ، وما يصيب الفرد من اغتراب في ذلك ، ينتقد الن باركر ويحذر من الحصار التقني للإنسان في الحضارة التكنولوجية . وإن ذلك يبشره بمستقبل مرعب مع ضياع الأمل المسيحي والتشويه الذى لحق به وعلاقة الفرد بالالة ، بعمق نظري يكشف عن كيفيات التعامل والاتصال والاستلاب الذي تتركه الالة على الفرد ويتم ذلك في الفيلم عبر أجزاء موسعة ومنظمة ومفهومة من الإشارات والأفكار السينمائية .

* لابد من التنويه إلى أن المادة الأساسية للفيلم هي اسطوانة الجدار (The Wall) للفريق الغنائي الانكليزي الشهير (pink floyd) التي سجلت أساسا قبل الفيلم فجاء الفيلم وأن العنوان الصحيح في تايتل الفيلم هو : pink floyd the wall

* **مخرج الفيلم :**

الن باركر مخرج انكليزي معاصر رحل للعمل في الولايات المتحدة وهو صانع حرفي كبير أثارت معظم أفلامه ردود فعل كبيرة في أوساط النقاد والمهتمين بالسينما وحققت مردودات مالية ضخمة لاعتماده في صناعتها على عناصر تحديثية تفوق التشويق والإثارة .

من أهم ما أخرج من أفلام (قطار منتصف الليل ـ 1977) والذي مثل فيه أيضا وصور في مالطا ويتحدث عن شاب أمريكي ألقي القبض عليه في عملية تهريب الحشيش من اسطنبول وحكم عليه بالسجن . يصور الفيلم الجو العام الذي عاش فيه الشاب من عنف وضراوة وكعادته في تسريب الانفعال والارباك للمُشاهد فإن بعض المتفرجين كان وهم من محترفي مشاهدة الأفلام أصيبوا بالاشمئزاز ولم يستطيعوا تحمل ما رأوه ، كمشهد قطع لسان أحد المساجين وهذا الفيلم مأخوذ عن قصة حقيقية حدثت في الستينات ومن أفلامه أيضا (سيصبحون مشاهير) وفيلم هام آخر بعنوان (بيردى 1984 Birdy) يتحدث فيه عن المجتمع الأمريكي ما بعد حرب فيتنام ، تجري الأحداث في فيلادلفيا وهو غني ببحوث علم النفس وقد فاز بجائزة المحكمين في مهرجان كان السينمائي عام 1985 . وفي عام 1995 قدم فلما آخر بعنوان (تعال انظر إلى الجنة) يصور علاقة شاب أمريكي بفتاة يابانية إبان الحرب العالمية الثانية وقد شارك به في مهرجان كان لنفس العام .

تنويعات الرسامة العراقية

سميرة عبد الوهاب الروحية

شاعية المأساة النادرة !

بقلم : كرم نعمة (1)

« .. أن يقيم الفنان في الفردوس أمر حسن ، ولكن الأحسن منه هو أن يفقده ثم يتذكره ، حينئذ فقط تكتسب التجربة وذلك الاحترام في العاطفة . »

لم تمنعنا كلمات الراحل جبرا ابراهيم جبرا من الدخول الى شفافية المأساة النادرة في فردوس الفنانة التشكيلية العراقية سميرة عبد الوهاب ، ولم يكن الأمر كذلك مع السيف الملتهب الذي شهره الملاك ، لكنه بالتأكيد فهو لنا ، ولعلّه خوفنا بشأن الجمال ، فلربما يتكرر السؤال الآن أمام لوحات سميرة عبد الوهاب ، السؤال المحير ، من هو الآخر ، المرأة في هذه اللوحات أم التفاحة ، المرأة أم الجرح الملتئم بأسرار الجمال ؟ ولعل في (تنويعات روحية) ـ المعرض الأخير للفنانة ـ مما يذكرنا ببعض افكار سميرة عبد الوهاب وبشكل خاص علاقة الرمز في مدار الاصوات المستحيلة .. ، فاليزة السائدة في أعمالها تتصل بالألم والحلم ، ولكنها تبقى عصية بمقدار يبقي الأحجية في وضع يمنع عنا الحلم الأخير لها ، ولأن يبقى الموضوع اللغزي ثابتا ، فإنّ للألم مذاقا يختلف كل مرة ، وبذلك يتجدد الالم كل مرة ، فبعد أن فقدت فردوسها أول مرة عام 1995 ، تهيأت لاستعادته بعد خمسة اعوام ، دون أن تتأمل فعل القدر المفاجئ والصارم لرفقتها الحميم ، فلم تكن أية استعادة .. !! ، وشغل الفردوس لذة الألم المؤجلة عبر تنويعات روحية وتهجدات شفافة ضارعة نحو الفضاء أو البياض ، فالفنانة تحلّق وتحوم وتسبح في عالم مكوّن من البلور والشلالات ، كما يقول الناقد عادل كامل .

سميرة تحرر ذاتها بالرسم حتى يقترب منها من التجريد الغنائي .. فثمة موسيقى تتخذ مع ألوانها الطرية الشفافة ، حتّى يبدو الأثر الرومانسي قويا ومؤثرا .. لكن واقعية الموضوع عندها يشكل دافعها في هذه السلسلة من الأعمال ، فقد صدمت الفنانة بقسوة بالغة برحيل ولديها ، وهو موضوع يتوغل عميقا في عالمها الداخلي .. هذا الموضوع ـ المأساة ، تعالجه الفنانة بنبل من يقدر مغزى القدر في حياتنا الزائلة .. فلا تنغلق على نفسها ولا تنغلق في أعمالها ، الأمر الذي جعلها تمتلك فرحا نورانيا عجيبا ، ولكنه الفرح الرمزي أو الذي يشكل أعلى قيم الإغتراب ، انها للحق لا تستسلم للأنين ، بل تترك خيالها يعزف موسيقى في وحدة السماء بالأرض : موسيقى

---

(1) كرم نعمة : صحفي وكاتب عراقي يقيم في ليبيا

اللون الأبيض ، هذا الرمز الآخر الذي يتجاوز المسميات أو التشخيص ، لأنّ البحث في جدلية أو سرية الموت والانبعاث جماليا ، لا بد أن يقود الى موقف الفرح ، هذا الذي يتضمن عمق المأساة أو عبث الأقدار ، انما سنرى الفنانة تتوغل باكتشاف الميلاد من الموت .

سميرة عبد الوهاب التي قالت لي مرة في صداقتها للحزن : ـ « ولد وكبر معي ، لكنه أصبح مع الوقت رهيفا ، شيئا من اللذة الغامضة » ترى أي حزن يبعثه القدر الآن .. ؟ سيصبح سؤالي خجلا ، غير جدير بالوفاء ، عندما سألتها قبل بضعة اعوام وبالتحديد قبل محاولتها الفاشلة استعادة الفردوس . (أتخيّل معاناتك ترف امرأة مخملية ؟) تأملوا الاجابة الماضية : ـ ربما ما تعنيه ظاهري ومجرد تماما ، ثمة احتدامات شخصية ومعاناة سرية بعيدة جدا عن الماديات ، وتلك حاجة الفنان الحقيقية ، الترف يخنق الفنان وقد يميته ، قد يسعد به الانسان الاعتيادي ، لكن للفنان احتياجات حسية وهي التي تمنحه التشظي والديمومة والوهج الداخلي ، احيانا أشعر بنضوب مؤلم وحاد في افكاري فابتئس وأحزن وقد اتوقف عن الرسم ، لكن ذهني يواصل بديناميكية البحث عن فكرة انضج في مشوار صعب ، فأنا قلقة ، غير مستقرة ومتعبة طوال الوقت ، لكنني بالتأكيد لست خاملة .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الرسامة وهي تصور رذاذ الشلالات دون أن تغفل جوهر النبع المتدفق ، ففي لوحاتها فرح مجروح ، انما الجرح يلتئم بأسرار الجمال ، فهي حينما تضع السطح مسبقا انما تمهد لنوع من المعالجة الاسلوبية ، بعد أن أتمت معالجتها التقنية وذلك حين سحقت الورق فوق القماشة ، وكما يرى الناقد التشكيلي فاروق يوسف ، فان سميرة عبد الوهاب وهي تمارس صناعة السطح انما كانت تهدف الى استهلاك جزء من عاطفتها التعبيرية .

وبعد ذلك يمكننا القول : ان الرسم مضى اليها وهي قد مسته مشفقة عليه ، لقد صفت

الرسامة ملمسا للسطح ومضت بالوانها تتلقى انفعالاته ، غير انها في الوقت ذاته كانت تفاجئه بما يقف به بعيدا عن كل احتمالاته ، لقد كانت تنتقي الفرصة التي تجعله يقف خارج احتمالاته الممكنة ، فهي لا تنقذنا ، انما تضعنا في قلب الرؤيا ، انها تضللنا لا بقصد اليها منا بل رغبة منها في أن نصل اليها ونحن في اقصى درجات الانبهار .

أو كما تقول هي ، إجابة على سؤالي السابق الذي لم أكرره بعد حادث الفقدان ، بل إستلته مني بوحيي وقالت :

ـ ثمة مسافة شاسعة عن أعمالي السابقة ، تلك المسافة الحبلى بالذهول ، بالمعاناة والفقدان ، هي ليست من نسيج الخيال أو وهما استمددته من حقيقة ، فتنويعاتي الروحية لا تدعو الى معنى مباشر ، لأن التنويعات من صنعي أنا ، لم يقدمها لي سوى القدر الضاغط على الروح ، أنا التي أوجدتها مما تبقى أو من الفجيعة وسكون الرحيل ، ربما لأنني حاولت أن استل الحقيقة من الحقيقة : الشيء الوحيد التي نقف ازاءها بلا حراك ، وترجمت الرحيل في حشد اللون وضجيجه ، حتى الاطار بدى وكأنه هامشا للألم !

سميرة عبد الوهاب ، رسامة يضنيها أملها الشخصي ، غير أنها من خلال رسومها تكتشف الجانب الموضوعي من ذلك الألم : حيث ما يمكن أن يستعين به الرسام على مقاومة الرسم ، فهي لا تفترض أن يكون رسمها بعظمة أملها .

انطولوجيا تشكيلية

ـ ولدت في بغداد

ـ درست الرسم في معهد الفنون الجميلة ببغداد

ـ اقامت معرضها الشخصي الأول في نادي العلوية عام 1971

ـ شاركت في معرض الأسبوع الثقافي العراقي في الجزائر عام 1976

ـ شاركت في مهرجان بغداد العالمي للفن التشكيلي الأول والثاني 86 ـ 88

ـ شاركت في المعرض الفني الذي أقيم بمناسبة الاسبوع البرلماني الذي عقد في القاهرة عام 1987 ورافقته

ـ شاركت في المعرض الفني في البرازيل عام 1995

ـ سكرتيرة الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب 1974

ـ سكرتيرة رابطة نقاد الفن 1981

ـ شغلت مديرة لقاعة بغداد وقاعة النصر 88 ـ 91

ـ أقامت معرضها الشخصي الثاني (الفردوس المفقود) في قاعة بغداد عام 1988

ـ اقامت معرضها الثالث في الكويت 1990

ـ شاركت في معرض الفن العراقي المعاصر الأردن ومسقط 91 ـ 94

ـ عضو في الرابطة العالمية لنقاد الفن (الايكا) ونقابة الفنانين

ـ أسست قاعة بغداد 1994 ومديرة لها

ـ اقامت معرضها الشخصي الرابع في قاعة بغداد 1995

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصيدة مدوّرة :

بإتجاه السمح بن مالك الخولاني

شعر : أحمد ضيف الله العواضي
(اليمـــن)

- 1 -

تسقط الكائنات وتبقى المعاني .. على قلق قالها وتأبط عمرا من الأمنيات التي ذبلت ، ومشى باتجاه الهزيع الأخير من الوقت ، ثمّ رأى الموت مثل نهار تجلى ، تردد ، هم بما هم ، خاف ، تقدم أكثر من أي وقت مضى كي يموت لتحيا الاماني التي ذبلت في البلاد السعيدة .

- 2 -

أيها الحلم يا بلد الفقراء وزهرة أحزانهم ، ستقر اليك طواعية ، نحتمي بك من جوع أيامنا ، نستجير بصمتك من نكد سمه ظلمات السياسة ، جور الهزائم ، أو سمه نكد الأمنيات التي ذبلت في البلاد السعيدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- 3 -

أيها الحلم يا عيدنا الأبدي ، ويا مهرجان الأماني التي ذبلت ، خذ يدي ملؤها شجن من فتاة الصوارم ، طهرني من عذابي ، ومن مرض إسمه بلد لا يقوم ، ومن زمن مالح يتخثر في الحلق ، خذني عيوبي موزعة في فضاء السياسة والقهر ، خذني وقريني منك حتى أكون واخرج ثانية من تراب الأماني التي ذبلت باتجاه الخيول الأصيلة ، لا بلد ميتا في دمي يتصابى ، ولا زمن يستبيح تراب الأماني التي ذبلت في البلاد السعيدة .

- 4 -

أيّها الحلم يا أجمل الكائنات . أحبك أكثر من أصدقاء الطفوله أنت فضائي ورمحي أغنّي أنا متعب بحياة أبددها كيفما أتفق العمر منتظرا للدخول إلى دهشة الموت ، إني سئمت البلاد التي لا تقوم ، الزمان الذي لا يقوم ، الأماني التي ذبلت ، وتراب الأماني التي لا تقوم .

- 5 -

أيها الحلم إنا صديقان . تعرف وجهي واسئلتي مفردا في زحام القبائل ، لا ناقة لي لتحملني في هجير السياسة ، لم استسغ مهرجان التمائم ، لم اتعود على ان أرقع ثوب الخلافة . كلّ نقود الخليفة بائسة ، ومنابره ثكنات الجنود . أحب البراري ، أحب التأمل ، والقات ، والنزق القروي . وأهرب من فعل لا فعل . لا فعل إلا جنود الخليفة . لا فعل إلاّ يموت الخليفة . لا فعل الاّ تموت سلالته . ثم لا فعل الاّ تقوم القيامة .

- 6 -

أيها الحلم هل قصب السبق لي أم لداحس أم لرسول سليمان . هل كلّما ارتد طرف القصيدة جاءت عروش التأمل . قل لي لمن قصب السبق . هل أخذ « السمح » عشرين أوقية من تراب الفتوحات هل عاد من « لابواتيه » في جرحه شجن الامنيات التي ذبلت في البلاد السعيدة .

- 7 -

أيها الحلم هل أخذ السمح عشرين أوقية من تراب الفتوحات ؟ كيف سيخرج ثانية من جبال « الطيال » الصوارم أرض الكروم ؟ سيخرج من فكرة في « التهائم » . من زهرة سكنت في خيال المواسم . من « زامل » في الصباح المدرج . نرسمه كلما .. آه من كلما . هل سنرسم بالمسند السبئي الزهور على عربات البضائع ؟ هل قصب السبق لي أم لبارحة من حديد الفرنجه ؟ والسمح ذاكرتي وحنيني الى سلم الأفق . هل سنقاتل إحدى وعشرين جيشا لنرفع رايته ونصلّي لمن قصب السبق هل لتراب الفتوحات ؟ أم لخرافة هذا الزمان الدميم الذي لا يصلي ؟ هل كلّما فاجأتني « بواتيه » ينتفض الوقت ، يخرجني من عباءته ، فيفاجئني الموت . في لابواتيه مت كثيرا .. لماذا يلاحقني الموت هذا الكثيف المخيف المكدر للأمنيات التي ذبلت في البلاد السعيدة .

- 8 -

أيها الموت في « لابواتيه » كيف نجوت من الموت ؟ كان زمان التجلي قصيرا وكان الهروب عصيا . أنا الآن وحدي أشاهد خيلا تكر وخيلا تفر . ارى زمنا يتوقف ليس لنا . ذهب السمح وابتدأ الحزن من لابواتيه حتى جبال « الطيال »

المنيعة . من يعصم الآن هذي الجبال من الحزن والشجن المتكاثر . من سيكملها ، ويمر بكف الاصابع بين ظفائرها ، من سيزرع فيها كروم السكينة ... كيف تموت الخيول وتبقى الخيول البليده .

ـ 9 ـ

أيها الموت كيف أخذت من السمح زهرة أيامنا ، كيف فاجأته وتجرأت . من أي ناحية جئته خائفا . ولماذا أتيت من الخلف مرتبكا ، يتقصد سيفك من عرق الخوف . كيف تحايلت . أيّ التمائم اخفيتها في ثيابك كي لا يراك ، وكيف أخيرا تجرأت ثم لماذا بكيت . عليه وأنت الذي ما بكيت ؟

ـ 10 ـ

أيها الحلم : مات مفاجأة مثل شار من البرق في طبقات السماء البعيدة . هل سنموت رويدا رويدا ؟ لمن قصب السبق لي أم لأسنلتي أم لخيل تكر قليلا ، وتذكر أن الخليفة ربّ النياشين ، قبل السياسة سيف الخيانة ثم تفر كثيرا الى قاع احلامنا ، وتنام على قبضة من تراب الأماني التي ذبلت . أيها الموت داحس مضحكة فلماذا تعيش الخيول البليده ؟

ـ 11 ـ

أيها الحلم مهما تزاحمت القوم لا رأي إلاّ لشيخ القبيلة . تبدو المضارب مضحكة . والخليفة مضحكة . فلمن قصب السبق لي أم بارجة من حديد الفرنجه ؟ لي أم لأسنلتي أم لمشنقة علقتها الرواه ؟ لمن قصب السبق لي أم لصدر الخليفة افق النياشين . نام الخليفة . قام الخليفة . حار ، ودار ، وأشعل في سره خوفه وتردده . استدار الى الخلف ، فر كثيرا ، وعاد قليلا ، تقدمه خوفه ، ونياشينه ، وحراب ، الحراسة ، والمال مرتبك .. والخليفة مهما تقدم مهما تحصن مهما تتكّر..يبقى الخليفة مضحكة

ـ 12 ـ

أيها الحلم جاء الفرنجة ثانية فلمن قصب السبق ؟ جاؤا مؤللة جندهم بالبضائع والثأر والبث في كل ناحية . أيها الموت يأجوج . والطائرات الفرنجة . هذا اتجاه الزمان الأخير . لمن قصب السبق . لي أم لبارجة من حديد . وهل يخرج السمح ثانية من جنوب الجزيرة . من فكرة في التهائم . من شامخ في « الطيال » المنيعة . من زهرة نبتت في خيال المواسم . من « زامل » في الصباح المدرّج . من بعض أمنية خبأتها البلاد السعيدة . **صنعاء/ أغسطس** 1995

إنتهى المـــدُّ يا صاحبي

شعر : مسعودة أبو بكر

الشموس التي تقت أن ألقى
آذنت بالأفـــول
حال اكتشافي مداها
وغزت زفزَفُ دوح المنى
فازّاحم سقط أعرافها
نثارا ... نثار
تمّ القصيد يا صاحبي ! ...
فدع نوافل القول
ما عاد في موقد المعنى .... وهج شرار
ضجّ للهجرة المشتهاة
طائر حاقت به لعنة الاعتكاف
بواد غير ذي في ء
صوّحته الحرور
فخزّن في حشاشته لحنا أخير
من مزامير شجوه
عبثا تسأل الدّوح عنه
ياصاحبي ! ...
رأيت البحر يحمرّ سخطا عليّ
ويسودّ حزنا عليّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتــرفع أسماكــه أذيــالها تتوعّدني
وتكــوي الطّــحالب جذلى كــاحليّ
تــلسـع خصري ألسـنة المـــدّ
ويــنفث الجــزر ملح الغــور ذيـفان
عبــر دمــي
وحـــين أصيــر آخــذة فــي التفسّخ
يمــدّ المـــدى مخــلبا
يفــتكّ مــن مقلــتي غيــمة
ثــمّ يدبـــر !
انتــهى المــدّ يا صاحبــي !
وهــذا العــباب يهي ء للجزر أوصاله
سلّمنـــي الحــلم لسطح النـــّهار
فلننــخ عنــق الــرّغبــة للوداع المكابر
حــريق هنــا
بــين فلــقتي رئتــي
يطــارد شـــراره عنـــد جلدي خطى السّمــندر
وفــي جــلدي تتقصّى المواجــع إذعــان أيّوب
فهــل لــي .... ياصاحبــي
بــوصــلة
إذ مــا شتّتت خطــوي الوجـــهات
يقــنع هديها القــلب .....
هل لـــي ؟ ! .....
بــين غـــاد وآت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حـــبل الأجـدّين يسحب رعـــشات نبضي
يتـــوعدها الـــوقت بالطّمـــس
هـــل لـــي ... يـــا صاحبي
وتـــر ! ...
اسكب عـــنده صوناتـــة الـــرّوح
قبـــل الغـــيـــاب
زمـــن أو لم بـــي حـــزنـــي العـــاهـــر
وأفـــرغ فـــي قرحتي طاسات خـــمره
والجـــرح يـــا صاحبي جـــرحـــان
جـــرح مـــباح لـــك أن تتـــنّ لـــوخزه
وآخـــر فـــيه النّصال تـــدب
يـــئزّ سوسه فـــي النّـــخاع وتكـــتم !
زمـــن أو لـــم بـــي حزنـــي العاهـــر
وذيـــفان وجـــدي
حتـــى تخشّب ظـــلّي
وما عـــاد يغـــري الـــزّمان التحـــرّش
بقلـــب خـــشب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عـــود فـــي الآتـــي

شعر : أميرة الرّويقي

تتقاطـــرُ ...
فـــوقَ اللاّ ...
شَـــذَراتُ الأنَـــا
تَتَوَاتَـــرُ ...
مساء اتٌ.. فـــوق القِمَـــمِ ..
رَاعفَـــةُ الخَطْـــوِ ..
وعديـــدةٌ ..
حَتَّى الإرهـــاق ..
حَتَّى الارْتمـــاء
ثَـــوْرَةٌ ...
انْصيَـــاعٌ .
انْصيَـــاعٌ ..
ثَـــوْرَةٌ .
جَلِيـــدٌ ...
حَطَّمَ كُنْـــهَ البَقَـــاء .
انْدثَـــارٌ ...
رُسُـــوخٌ .
انكسَـــارٌ ...
شُـــرُوخٌ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صُعُـــودٌ ...
تحت أقْـــدَامِ السُّفُـــوحِ ...
يَصْبُـــو ...
لِتَسلُّقِ كُلِّ مُنْعَطَفَـــاتِ ..
العُـــلاَ .
ارتجَـــالٌ ..
اخْتَصَـــرَ ..
فِي السَّنَـــةِ الضَّوْئِيَّـــةِ ...
أَجْسَـــادَ الضِّيَـــاء
ابتـــذالٌ ...
تَرَنَّـــحَ ..
تَبَجَّـــحَ ...
صَـــرَخَ
تَزَاحَـــمَ
نَفَـــخَ ...
تَصَـــادَمَ .
تَهَـــدَّمَ ..
تَرَمَّـــمَ ..
تَقَـــادَمَ
أَحْدَثَ فِـــي الأرضِ
ارتِجَـــاجًا
مِنْـــهُ انْبَجَسَـــتْ ..
قَرْقَعَـــاتُ الـــرَّدَى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سُيُوفٌ ..
صَدِئَتْ ...
فِي غِمْدِهَا
تَوَارِيخُ ...
شَرِبَتْ ...
فِي الِانْتِمَاء ..
نَخْبَ الزَّوَال .
غُبَارًا ...
تَصَاعَدَ ...
حَتَّى عِنَانِ الأَسَى ..
مِنْ حَوَافِرِ الأَبْطَال .
دِمَاءٌ ...
وَرْدِيَّةُ المذَاق ..
دَكْنَاءُ ...
حَتَّى الثُّمَالَهْ
نَارِيَّةُ العناق
جهورِيَّةُ الصَّوْت .
وجُوهٌ ...
هِيَ الغُبَار ..
هِيَ الانبهَار .
هِيَ التَّرْحَال ...
هِيَ الانْتِظَار .
هِيَ القَاع ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقْتَ الظُّهيرة .
هِيَ السَّطْحُ ...
وَقْتَ الانْدِثَارْ .
تَلْهَثُ ...
ألْسنَةٌ نُحَاسِيَّةْ .
أعْنَقًا زُجَاجِيَّةْ ...
أنَاملَ قصديريَّةْ ،
هِيَ الإعْصَارُ ...
تَدَاوَلَ زَبَدًا
فِي غَوْرِ الإسْتِوَاء .
ترتدُ
الصَّبَّاحَاتُ الشَّفَافَة
عن أقْوَاسِ الرَّحيل
كُلَّمَا حَاوَلْتُ ...
فِي مُجُونٍ ..
فِي عَبَثٍ ..
فِي جُنُونٍ ..
فِي شَغَفٍ ..
كَتَابَةَ الأصِيل .
نَهْدًا ..
حَاوَلَ الهروب ..
من دفَاتِر ..
كُلِّ الشُّعَرَاء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فَتَنْصَهِرُ ...
الأزْمانُ غَيْثًا .
وتَنْتَشِرُ ...
الرُّؤَى ...
قَسَمَاتٍ سَمْرَاء .
فيعْتَرِينِي ...
اللَّيْلُ ...
رَفِيقًا .
حَطَّ فَوْقَ اللأشَيء .
أشياء ..
وأشياء .
فَلاَ أجِدُنِي ..
أضْمَحَلُّ
قَبَسًا ..
تَرَاءَى للسُّنَا ..
أعْمِدَةٌ ..
تَهَاطَلَتْ ...
أنْوَاء .
قَحْطًا
بَقَايَا فَضَاء .
فهل في انْزِلاَقِ ..
الكَوْنِ ...
يَوْمَ الحشر ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بَدْءٌ لِلْحيَاهْ ؟
هل في انْغِلاَقِ ..
الزَّمَنْ ...
لحظة البَتْرِ ..
خَرْقٌ لِلْمَدَى ؟! .
هَلْ فِيَ انْعِتَاقِ ...
الشَّمْسِ ..
مِنَ القُبَّةِ الزَرْقاء ؟! ..
خَزْيٌ ...
وعَارٌ ...
واخْتِراقٌ ..
لِتَراتِيل الإيماء؟
هَلْ تَتَحَقَّقُ ...
يَوْمًا ...
فِي خِصْبِ ...
القصيـــد ...
فِي غَضَبِ ...
الوليدِ .....
فِي تَعَبِ الآتِي ....
الذي يأبى أنْ يعُود ...
أحلام الأنْبِياء ؟!!

6 نوفمبر 1995

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بُرُوقُ السَّعْد

مهدى إلى الشاعرة رقية بشير بمناسبة صدور ديوانها «لم الحزن؟»

بُرُوقُ السَّعْدِ تَسْطَعُ بِالتَّهَانِي ضَحُوكًا بِالْمَسَرَّةِ وَالأَمَانِي
«لِمَ الْحُزْنُ؟» رُقَيَّةُ ، قَدْ أَتَانَا مُرَحَّى مِلْؤُهُ فَيْضُ الْمَعَانِي
لِمَ الْحُزْنُ ؟ أُخَيَّةُ ! إِنَّ قَلْبِي لَيُوْرِقُهُ التَّفَكُّرُ فِي الْمَغَانِي
دَعِي النِّسْيَانَ يَقْطَعُ حَبْلَ وَصْلٍ مَعَ الأَحْزَانِ وَلْتَصِلِي التَّهَانِي
فَفِي دِيوَانِكِ الْمَسْبُوكِ نَفْحٌ تَعَطَّرَ مِنْ رَحِيقِ الأُقْحُوَانِ
وَ أَبْرَزَ كُلَّ مَعْنًى فِي جَلاَءٍ فَلَيْتَ السَّعْدَ يَأْتِي فِي الأَوَانِ
وَحَابَ النَّفْسَ فِي نَفَسٍ قَوِيٍّ فَأَطْرَبَ كُلَّ مُسْتَمِعٍ وَعَانِ
كَأَنَّ الْبَحْرَ يَزْخَرُ بِالْقَوَافِي فَعُولُنْ فَاعِلاَتُنْ فَاعِلاَنِ
كَرَوْضٍ عَاقَهُ الْغَمْيُ فَفِيهِ تَهُزُّ السِّرِّيحُ أَعْطَافَ الْجِنَانِ
رَأَى فِي الأُفْقِ بَارِقَ مُزْنَةٍ فَانْبَرَى يَهْذِي بِحَبَّاتِ الْجُمَانِ
تَحَدَّى الصَّعْبَ فَانْهَالَتْ عَلَيْهِ غُيُوثُ السَّعْدِ تَهْمِي فِي اتِّزَانِ
«لِمَ الْحُزْنُ؟» رُقَيَّةُ، سَوْفَ يَبْقَى عَمِيقَ الْوَقْعِ عَالِي الطَّيْلَسَانِ
قَصَائِدُهُ الْجَمِيلَةُ أَمْتَعَتْنِي فَفَاضَ الشِّعْرُ فِي أَرْجَا كِيَانِي
فَلَمْ أَلْقَ مِنَ الإِذْعَانِ بُدًّا فَأَمْسَكْتُ الْيَرَاعَ بِلاَ تَوَانِ
وَقِرْطَاسٍ يَئِنُّ لِثِقْلِ حِمْلٍ نَزَعْتُ الشَّيْبَ عَنْهُ بِالأَغَانِي
فَغَابَ الْفَجْرُ مِنْهُ فِي دِثَارٍ حَبِيكِ الْوَشْيِ مِنْ سَحْلٍ يَمَانِي

فَكَانَ الشِّعْـــــرُ فِي أَلَقٍ بَدِيعٍ كَحِـنَّـــاءِ الْعَرَائِسِ وَالْغَوَانِي

تَجَلَّى حُسْنُهُ فِي كُـحْلِ مُوقٍ وَكُحْلُ الْمُوقِ أَجْمَلُ بِالْحِسَانِ

تَرَاءَى فِي سَمَاءِ الْكَوْنِ نَـجْمٌ يُسَارِقُـهُ الْجَمَـــالَ بِكُلِّ آنِ

فَأَخْفَى سِرَّهُ فِي ثَـوْبِ دَجْنٍ يُدَارِي بِالسَّوَادِ عُيُونَ حَانِ

«مُنَسْتِيرُ الرُّوَاءِ» قَصِيدُ مَجْدٍ إِشَـارَتُهُ «انْصِهَارٌ فِي تَفَانِي»

«قَلِيبِيَّةُ الزُّهُورِ» نَشِيدُ ذِكْرَى يُذَكِّـــرُنَا بِآلِ الْقَيْرَوَانِي

«مَعَ الطِّفْلِ» الصَّغِيرِ وَ«شَوْقِ صَيْفٍ»

سَيَصْفُو الْعَـيْشُ مِنْ بَعْدِ الْهَوَانِ

وَ«تُونِسُ» أَوْ «حُحُودٌ» وَ«اعْتِرَافٌ»

قَـــلَائِدُ مِنْ جُمَانٍ فِي اقْتِرَانِ

وَ«لَيْتَ النَّفْسَ تَصْطَبِرُ» سِـــمَاطٌ

عَنِ التَّوْشِـــيحِ وَالتَّرْصِيعِ غَانِي

«أَرَاكَ» وَ«لَنْ أَهُونَ» لِكَيْ «تَعُودَ»

أَغَانٍ مِنْ مَثَـــالِثَ أَوْ مَثَانِي

لِمَ الْحُزْنُ الْمَقِيتُ وَإِنَّ سَعْدًا تُـرَجِّـــيهِ رُقَيَّةُ فِي الْعِنَانِ

سَيَسْمُو الشِّعْرُ يَوْمًا حِينَ يَلْقَى قُـلُوبًا لَمْ تَزَلْ فِي الْعُنْفُوَانِ

بَشَائِرُ مِنْ «بَشِيرٍ» فِي سَنَاهَا تُقَـلِّـدُهَا الْفَـخَّارَ وِسَامَ شَانِ

وَيُنْشَدُ شِعْرُهَا فِي كُلِّ حَفْلٍ وَيَهْنِي الصَّحْبَ مِنْ قَاصٍ وَدَانِ

أُخَيَّةُ إِنْ بَدَا مِـــنِّي عُزُوفٌ عَنِ الأَشْعَارِ فِي هَـــذَا الزَّمَانِ

فَلَنْ أَنْسَى «لِمَ الْحُزْنُ؟» حَيَاتِي لأَنَّ الـــرَّوْحَ مِنْ ذَاكَ الْبَيَانِ

عبدالوهاب بوزقرو المنستير في 12 أكتوبر 1996

أريـــج الأصـــداء

بقلم : محسن الكريطي

الأريج الثاني : لقطـــات من عرس الكحـــل والصّـــديد

فاتحة اللّقطات :

لا أعرف كيف أوزان جسمي في الحيّز
والعنكب يقبع في آخر جمجمتي
يفرز أرجله الشّوكية في قاعدة الرّأس
يشلّ تلفّتي الصّعب
ويسكب سمّاً في ظهري
لا أدري ـ لا أدري ...

علي البندي
من قصيدة الدّائرة الحمراء

اللّقطة الأولى :

... وجدلا كان اللّقاء ...

يعتقد شوقي البغداديّ في قصيدته « الفجر في المدينة » أنّ الحركة الخافتة تظلّ نبرة سارية ، بداية الشرارة في الأعواد العجاف ، التّرنيمة المهدهدة لمن يرقب الفجر المبكار في المدينة الخاوية ... نعم عندما تكون كلّ الشّبابيك مظلمة ، وكلّ الكوى مسدودة معتّمة وسط السّكون ، وكلّ البراري نلهث قطرا وريّا ، يظهر من يقرع في خفوت أرض الرّصيف ـ يهوّم مثل الصّدى الخفيف . قد يكون شبحا ... قد يكون طيفا ... قد يبدو حلما أو رسما لمثال مجهول ... المهمّ أنه بحركة يكسب الرّهان ... قد يذهب الظنّ زعما أن ديكور الحركة واللاّحركة الأريج والصّدى ... الموت والنّماء عبث ... قد يبدو اللّقاء مصادفة ولكن الأمر يبدو جدلا ... كذا اللّقيا بين النّقائض وخاصة تزاوج الكحل والصّديد ...

اللّقطة الثانية : قصّة الكحل والصّديد ...

إنّها أحلى القصص وأمتعها ... تكرع متعتها من بساطتها فهي واضحة حدّ الخفاء مفهومة حدّ الإبهام معقّدة حدّ البساطة ... تنبع لا من أساطير الإغريق وقمم التّراث الإنساني ... لا تشبه ما نسجه الخيال من حبكة قصص شهرزاد أو أتان بشّار أو إلكترا وجوكستا وليلى وأهل ليلى ... هي وليدة لحظة العشق اليوميّ عندما تتمرّس اللّحظة الباحثة بأزيز واقع المبحوث عنه .. إنّه الواقع بتناقضاته حين يلفح وجه الفتى فتنة ولهفا وضياعا وهنا تتقاطع مع عطفة العشّاق أو كما

قال جلال الدّين الرّومي يوما في لحظة عشق :

لَكَ ... لَكَ يَجُوزُ من لسْتَ تُعاني العشْقَ فَنَمْ

وامْضِ فالحزْن والعشق نصيبانا فَنَمْ

وإنّنا نسعى كالماء بحثا عن وصاله وليس لديك هذا الهمّ فنم .

فصباحنا صبوحه وعشاؤنا دلاله وما دمت

ترغب في النّسم ولديك همّ العشاء فنم .

هكذا تتبدّى بعض ملامح القصّة ورؤاها فإذا بنا أمام علامات مرور ... أمام ما يجوز وما لا يجوز والجواز له مجازات في الفقه اللّغوي فكيف يضحي الأمر إذا تردّى إلى فقه يوميّ ... والّذين خصّهم جلال الدّين بالنوم كثيرون ، وقلائل من خرجوا عن القاعدة أذكر منهم الشيخ عمران ... قد تكون الذّاكرة غير عادلة بما أنّ التّراث الممتدّ زمنا أوسع من ذكرى عابرة ... قد نسقط في عسر الاختيار والمجال رحب كي يتقسّح الخيال . ولكن قصّة الشيخ عمران هي أوضح القصص بما أنّها استمدّت من عرس الكحل والصّديد ... لقيت الشيخ على بوّابات الطقوس اليومية الصّادية ... كان الوقت بين الظّهيرة والأصيل وكان الكلّ يغطّ إلاّ هو ... على شحوبه يبدو نضرا وعلى عبوسه وجدّيته يظهر مرحا مستبشرا ... لا أدري ما سرّ حفظه أصول اللّغة الفصحى وقد تتصلّ أبو الأسود الدّولي من أصولها وفروعها . وذهب بي الخيال بعيدا عندما كان الشّيخ كعنف الماء يرسم تصاويره كما يشاء ... الشيخ عمران متمرّس بفنّ الحياة ... يحادثك في شتّى النّوازل في صياغات تذهل حبكتها من رام سماعا ... حدّثني يومها عن قالبلي ، عن المفارقة بين التّاريخ والتاريخيين إرادة الفكر وفكر الإرادة . وعندما روّعته مسائلا إيّاه عن إمكان الصّمت عجزا رأيته متأفّفا عنيدا . وعندما قارعته برهانا عن إمكان بزّ برعمه له وقد كرع من حضارة ميرابو تحفّز وجلا . وفهمت أنّه يحمل لغزا ، فإذا به يردّ بالمثل . ويبادرني صداديا حدّثني عن قصّة الرّحيل ؟ قلت إنّها طويلة كليالي الشّقاء قال : أوجز . فأجبت إنّها قصّة عرس الكحل والصّديد ... بدا له الجواب لغزا . وهمهم بذهول : « العرس ... الكحل ... الصّديد ... » إنّه جمع ما لا يجمع قلت : وأحلى القصص وأمتعها تلد من رحم هذه التوليفات ... اعذرني شيخي الجليل لم يكن الوقت على طوله عليلا ولا الإفصاح على إمكانه ممكنا لقد كان الزّبد المحيط يكسّر الأوصال وكان العنكب يقبع في آخر الجمجمة وكنت مهووسا بشوق الرّحيل ...

اللّقطة الثّالثة : ملامح عرس الكحل والصّديد

لعلّك أيّها الشيخ الجليل تحلم بعرس تتهادى فيه البدويات يحملن البخور والنّذور ويوزّعن البسمات على الضّيوف وستكون حتما أكبر المبجّلين . وترقص الجياد حولك وأنت مكفهرّ ويذهب ارْتِدَادُك أيّها الشّيخ ... لعلّك تحلم مثلي بطبول تقرع توقظ ما مات من عوالمك المنسيّة وتفزع الديك وقد ذاب صياحه مع الرّقاد على حدّ عبارة ابن جيكور ... أيّها الشيخ عمران كم كنت حالما مثلي فلنعد من معراجنا الفضّي ... مع طيف البراق نرجع إلى مبانينا ومقاهينا ورغيفنا طريح الطّرقات لنعد إلى عرس الكحل والصّديد مدعومين بما قاله الشاعر الأردني « خيري منصور ... إنّ لعرس الكحل والصّديد طقوسا خاصّة من تدخين وشراب وسماع وقراءة وكتابة

ورقص ... إنّها الصلوات بلا حدود ... ثق أنك ستكون المحاصر بعيون أصحاب الوليمة الكبرى ... لن يتركوك أيّها الشّيخ على سجيّتك سيطلبون منك دوما المزيد ... سيريدون ما لا تريد ... عندما تأخذك ظلال النّعاس في هذه الجوقة الكبيرة ستغني أيّها الشيخ ثملا ... وستأتيك كلمات خيري منصور كلحن خالد ...

وستترنّم قائلا :

أدخّن ما لا أريد
وأشرب ما لا أريد
أحدّث من لا أريد
وأسمع من لا أريد
وأقرأ ... أكتب ما لا أريد
وهم يطلبون المزيد
من الرّقص ... كالطّير فوق الوريد
رقصت ... رقصت وغنّيت حتّى أذبت الحديد
وهم يطلبون المزيد ...

ألا تذكّرك التّرنيمة بالجحيم وميدوزا وعوالم الأقبية والورم والصّديد ؟ أليست ترنيمة المنكب عندما يرمي شباكه ؟ أو تعويذة الآلهة العنيدة من المريد الرّجيم ؟ ... هكذا يأتي اللّحن في أعراس الكحل والصّديد ... هكذا تكتب دساتير من يريدون الإرادة ... كم وزّعت أيّها الشيخ عمران قرابينك وأسديت عناوينك وصرخة كأبي هريرة في الجماعة : هي الفراديس ادخلوها ؟ هي الأنعام اركبوها ... وهذه الفصول اطلبوها ... وها أنت كأبي هريرة ترجع فاني العصا هازجا بأغنيتك اليتيمة :

أنا قافية الأغنيات التي لا تعزّ
على أصغر الشعراء
وفي كلّ عصماء ... بكماء .. بيت القصيد
أنا يا أبتي في الدّماء دماء
وفي الماء ماء
وفي كلّ حرب شهيد
أنا يوسف حين يكيدون
أكل في كلّ جبّ وليد
وأنا عندما يحلمون
« الخليل » الذي سوف يذبح أبناء ه كلّ عيد
أنا يا أبتي كحل أعينهم
صرت فيها الصّديد ...

البقية ص : 70

رأسان وجـــــد

بقلم : ليلى العثمان
(الكويت)

هو ذا النور يأتي معربدا ، يخترق العين كسهم أزرق ، ما تكاد تبتلعه حتى يرتد من حيث جاء كمجنون تطارده عاصفة من الأيدي ، يعود مرتطما بالجدار فيتعانق والضوء الأحمر . ينفرشان على السقف كطرحة عروس . أميل اليه ..

أهمس :

يشد بوقتك ، الليل طويل .

ـ استمتعي بوقتك ، الليل طويل .

ـ أكاد أختنق .

ـ سيبدأ الآن استعراض الضوء .

تتحوّل الألوان مستطيلات متداخلة تتفرع منها مربعات تكبر .. تكبر .. وحين تمتد نحو الجدران المغلفة بأرقى أنواع الورق ، تتحول الى دوائر وتعود ثانية الى السقف ثم تنزلق إلى الأرض اللامعة بشكل حبات من الزمرد تدوسها أقدام الراقصين ، فتنتفض ثانية ترفض الذل وتعلو الى السقف ، تصير أنياب ثعابين تواصل زحفها على كلّ الأطراف ، تلعق ألوان الوجوه وتضفي على أزياء النساء بريقا يفير ألوانها ، فتصير أزهى وأجمل ، أما الشفاه المصبوغة فتكشف كل شفة منها عن مطلب شهواني .

أتململ . أعيد الهمس :

ـ شفتاي جافتان .

ـ بللهما بالماء .

ـ الماء بارد والجو خانق .

مال محتضنا كتفي :

ـ يا حبيبتي استنشقي الهواء ليدخل إلى صدرك .

صدري محروس بشال من الحرير ، وتلك الصدور التي أمامي شوقها يشق الثياب . لو كان في مكان آخر

ـ هي ليلة وتمضي ، لا تفسدي على نفسك المتعة .

ـ متعة ؟ !

ما المتعة في أن أراقب هذه الألوان الصارخة المستفزة التي تهاجم العين لتخطف البصر ؟ ما المتعة في أن أراقب هذه الصدور المنسورة بالعقود وبالسلاسل ؟ من أين جئن بهذه المصوغات ؟ كيف تتحمل أعناقهن هذا الأسر ؟ ولماذا يتمادين في استعراض كل ما تحفل به خزائنهن ؟؟

كأنني داخل خزانة حديدية ، يهطل أنفي عرقا ، تفوح من الراقصين روائح مرشوشة بإسراف ، مخلوطة بروائح الجسد الذي لا يستحم إلا في مناسبات كهذه . تبتلع رئتاي الروائح وعصير

الدخان المتطاير . تتغذيان بالرق ، وفوح الكؤوس المترعة ، وبوح الكلمات الملجمة الراغبة في الانفلات ، لكنها تخرس داخل حلوق أصحابها فتفوح روائح لغة أخرى . أنامل تتشابك بعرقها . عرق . غزير مفاجئ ! وخدود تتلاصق ألوانها ، وعيون تتناجى مناجاة محروم . والموسيقا هنا تصادر كل صوت ، فيصير لكل شي ء عشقه الخاص .

أحرك ساقي الباردة ، الأمس ساقه القوية :

ـ هل نتحرك ؟؟

ـ لا يجوز .

قالت عيناه بعتاب واضح أخرس عندي كل رجاء .

لا رجاء ، ولا أمل في المحاولة .. استسلمت .. أخذت اتابع المشاهد أمامي . الخدم يحومون حول الطاولات كالنحل ، تحط أكفهم فوق الصحون تهيل أشكالا من المقبلات . ترفع كؤوسا وتملأ كؤوسا ، تمسح أطراف صواني الخضار الطازجة . لم يكن هذا موسم بعضها ، لكنها جاءت .. فكم دفعوا ثمنا لها ، ومن أين جاء الثمن ؟ كل شي ء متوافر هنا ، حتى « لبن العصفور » الذي تحلم به صبيات اليوم كمهر يقدم لأب جشع يهوى صفقات البيع .

الضوء يداعب المكان بشراسة ، يغزو كل بقعة بتحد وقح ، والصدور والهة ، لحمها بارز كبضاعة خاسرة تبحث عن مشتر جائع .

الجرسون يقترب . يدس فمه ذا الشفة الغليظة داخل أذني :

ـ الطلب سيدتي .. سكالوب ؟ ستيك ؟

تقززت جسدي .. احداهن تقترب من طرف البست تدور بجنون وهي تراقص عجلها كبقرة « صارف » فيبدو فخذاها للشحمان

الجرسون يكرر سؤاله مصطنعا الأدب ، فانتبه الى أن فمه لا يزال يحاصر أذني .

ـ هه : لحم ماذا ، بقر ! ضأن .. أو .. أرانب ؟ ضحك ببلاهة ، تعود أن يفهم رواد هذا المكان الرفيع ماهو الاسكالوب والفيليه والستيك . وأنا بلهاء اذ اوجه له هذا السؤال ، لكنه يرد كأنه يمنحني فرصة معرفة شي ء جديد :

ـ ستيك عجل ..

هززت رأسي :

ـ طيب ستيك . لكن سوّه جيدا .

بانتظار اللحم .. لحم شفتي بين أسناني ، ترى أي لحم سيأتي به ؟ هل أصدق ! لقد تاجر بعضهم بلحوم الحمير والقطط الضالة والكلاب ، وفي هذه الدنيا هنا من يذبحون بعضهم وقد يعجبهم هذا النوع من اللحوم ، من يدري ما الذي سيدخل معدتي هذه الليلة ؟ .

الليل أحسه طويلا شاقا ، وجسدي مستسلم رخو يتراقص عليه الضوء العنيف . من هنا يأتي كأنه سيف يبتر الذراع فأهتز .. من هنا .. يضغط على الصدر فأتصور أخطبوطا عشق صدري فجأة وجاء يصادره لنفسه . وها هو ذا ينفسجيا كلون دم معتق يأتي من الأعلى خطا رفيعا حادا ينصب على رأسي ، يشقه فينشطر كرغيف ساخن .

صار لي رأسان .. يستندان على رقبتي الصلبة الثابتة على جسدي ، ينفصلان شيئا فشيئا ، يتابع الأول بنظراته الضوء البهلوان . يتسلى بالنظر الى الجماعة ، يرضى بحصار الواجبات الاجتماعية ، هذا السلك الشائك الذي لو وفرت منه لتمزقت أواصر الصداقة ! بينما رأسي يطوف بأحلام الهروب .

في هذا الكهف تموت الحياة ، سنابل الشمس لا تدخل .. لا تطرد جراثيم البذخ والعهر السارية ، فيستشري المرض في الصدور .. في الضمائر .. في الأجساد . فتتنعش اللذات وتنتصر الشهوات ، وتقرر النساء الهاربات ألا وقت لتربية الأطفال .

تتوتر أعصاب رأسي .. يميل عليّ الرجل الذي يغرق في يقظة السبات :

ـ هل سنبقى طويلا ؟

ـ نحن مدعوان ولا يجب أن ننفصل عن الجماعة .

رأسي المنفصل يتمرّد ، يبغي انفصالا نهائيا عن توأمه ، يبدو الاشمئزاز في الأشكال الصوتية المرعبة ـ على الرغم من روعة تكويناتها ـ واضحا على قسماته ، يؤكد لنفسه :

« كل هذا لا يربح ، الحياة في الخارج رعشة يومية لذيذة فلم الانتظار » ؟

يتلفت رأسي ، يخشى أن يلمح أحد الفكرة الطارئة في داخله ، لكن عيون الجميع وعقولهم سابحة في أجواء المكان هائمة بروائحه الممتزجة .

ينتهز رأسي الفرصة ... ينفك عن الآخر .. ينسل من على رقبتي الى الأرض .

رأسي ينتبه لرأسي الهارب .. يتابعه وهو يسير متعثرا بين الطاولات المزكومة باللذة .

رأسي يشفق على رأسي .. يخشى أن يفقد السيطرة على نفسه فيتعثر ، وتدوسه أقدام الراقصين أو أحذية الرواد الذين ما زالوا يتهافتون على المكان .

أحذية الخدم السريعة تزحم الرأس .. توسع له الطريق ، بعضهم يداعبه ، بعضهم يبتسم له مودعا غابطا العين التي سترى ضوء الفجر . أحدهم يدس في ثغر الرأس قطعة لحم يلفظها ، يكمل سيره . ورأسي الأول قلق يتابع الخطوات ، يخشى أن يقع توأمه بين أنياب الرجال أو فتنة النساء أو تتسلط عليه جنيات الليل ، أو تلمس أطرافه زهرة فتغريه بعطرها فيضل طريقه لكنه سار واثقا مرحا ، جبارا يحمل فرحة يطير بحرية نحو الباب المخملي ، يدفعه ويهرب .

هرب رأسي ، يحسده رأسي الآخر الذي يئن تحت سيطرة الضوء المجنون ، يأكلني الكرسي المخملي ، كأن آلاف الديدان قد ولدت فيه ، تنبثق في رأسي فكرة ، تلتمع كالتماع البرق في ليلة شتاء مفاجئ . أتلفت أخشى أن يثير البرق فضول الاستفسارات ، فيخمد التمرد الذي ولد مع انبثاق الفكرة . تمرد يدعوني أن أطلق هذا الجسد المدفون الى ساحة رحبة . الى حيث كركرة العصافير العاشقة ، وزغاريد النهار الذي يولد الآن . أرفع كفي الى عنقي ، أتحسسه بحذر ثم أرفعهما الى قمة الرأس ، أهزها ، أنزلق الى الطرفين ، أحرك ، أتأكد أن فتحة العنق توسعت قليلا بعد أن انفصل الرأس ، أفرح ، أمد أصابعي الرفيعة ، أدسها في فتحة العنق .. أوسع ، أزلزل الرأس ، يزداد الاتساع ، تصير فتحة عنقي مهبلا طريا في لحظة ولادة يتوسع كلما مارست أصابعي عملية طلق صناعي له . أرخي ، وأشد ، أرخي ، وأشد لم يبق الكثير ،

ها هي طلقة أخيرة ، ويولد الرأس كطفل يتيم . امسك به بكفي . لا أثر لخدوش ولا قطرات دم ، ولا بقايا مخاط ، انظر اليه باشفاق ، أزرعه في كف واحدة كطفل أبله : بالكف الأخرى أوسع مكانا على الطاولة المليئة بعشرات الأصناف المتخمة بالدهون ، أضعه في المكان ، أداعب شفته برقة ، أمسح على شعره أودعه ، وأنفلت جسدا بلا رأس لا حقة برأسي الهارب الى الحياة .

في ذي الحياة يصدح فجرها ، بدأ الليل يتجشأ ظلمته . بدت المدينة كعروس خجلى تحت ضفائر الفجر المتناثرة ، تفوح رائحتها عذرية كأن الليل لم ينتهكها بعد . تتفتح بشائر الصباح شيئا فشيئا كأوراق وردة تتمطى بين ذراعي عاشقها ، وتهب نسيماتها الطرية هبويا رقيقا يلفح الوجه كقبلة الأم .

أركض .. تركض الشوارع بأعمدة النور المنحنية المطفأة وتركض الفراشات وأوراق الأرصفة ، أهتف ، يهتف ضوء الصباح ، مولود يومي يسمع العالم صوته ويفرح .

أنادي .. تنادي أصوات الباعة النشطين الطيبين .

أسعل .. ينهق حمار نؤوب ، أتلفت ، تتلفت أعناق الشجر الحملة بخيرها ، أصرخ .. تصرخ الحياة كلها من حولي مبكرة طازجة شهية الرائحة ، كرغوة حليب درها الضرع للتو .

أمشي غارقة نحو قلب المدينة ، هي ذي المساكن المتراصة تلفظ أجساد أصحابها إلى الشوارع المبللة بندي الصباح وبول المواشي . يتوزعون في الأزقة الضيقة ، أجساد طموحة تعارك الحياة ، مستوية زاخرة بالحرارة ، عرقها مالح رغم طراوة الصباح ، عروقها ناتئة تستغيث بدمائها ، هي ذي الرغبة في الحياة . وفي معاركتها مغروسة في لحومهم السمراء التي صقلتها الشمس ، تشققات محفورة في الأكف الخشنة . وفي الجباه التي تعلو فوق عيون تموج فيها شهوة البقاء والعطاء ، على الرغم من التعب يتحركون لا يستريحون . لقمة النهار التي تأتي بالآه وبالرجاء .

اواصل السير ، أندس في الأزقة اندساس الخيط في ثقب الابرة ، أجساد تتوزع تحت جدران الابنية العالية ، وعند أعتاب الجوامع المتناثرة مائدتها نحو السحاب ، وفوق الأرصفة ، تحمل عاهاتها وبؤسها ، وزخرات الجوع والعرى ، وتحلم بلقمة ، وملابس لعيد يسمعون أنه يأتي . أتابع اقداما عارية لاطفال تشتهي أعينهم الفقرة في هذا الفجر المتنفس .

يتحلقون حول بائع فطورهم اليومي متسابقين الى الرزق ، مهرولين بعد ذلك الى الجحور الضيقة التي يتزاوج فيها أهاليهم كالأرانب . يجوعون ، ينامون ، يستفيقون على أمل أن يندس في الحجر المنسي رغيف خبز تتقاسمه العائلة بالعدل ، وتصوم بعده شهرا .

تدخل الى جسدي روائح المدينة الحنون ، على الرغم من بؤسها تتفرز في مساماتي ، تدخلها ، تتؤب في دمائي فأشبع ، أحس للشبع طعما لذيذا . أحس امتلاء ينسيني رأسي الذي تركته هناك على الطاولة الزاخرة بأشهى الأطباق وهو يتابع الضوء المتلاعب برشاقة مرعبة ، وينصت الى الموسيقا المجنونة التي يخرس دونها أي صوت .

هل ترى رأسي هناك يتذكر جسدي المنفصل عنه ؟ هل يتذكر تأوهه الذي فر بجلده من ذلك الكهف الصاخب ! ومن حياة ميتة على الرغم من صخبها ، أم تراه فقط ينتظر طبق « الستيك

» الذي طلبت من الجرسون أن ينضجه جيدا ؟ هل تراه الآن في الصحن تفوح رائحة شوائه ونضجه ؟ هل هو شهي الرائحة كأجساد هؤلاء الكادحين ؟ تستوي الروائح داخل صدري .. رائحة مدينة واحدة شقها السيف كما شق رأسي فصارت مدينتين ، مدينة تفقد الوعي بصخبها المجنون ، ومدينة تعيد الوعي للصخب اليومي من أجل اللقمة ، من أجل أن تبقى الرؤوس صلبة فوق الأعناق .

أتحسس عنقي ، أتذكر رأسي الذي هرب أين هو الآن ؟ هل ترى عيناه ما ارى فتمتلأن دهشة وفرحة وتسبيحا ؟ هل تتحرك في عروقه نشوة الاكتشاف فيمارس عشقه للأرض الرطبة ؟ للأجساد العامرة بنشاطها ؟ تعانق غصون الحياة الطرية ، تعلق بأذيال أمل لا تطفأ شموعه .

أشتهي عناق رأسي ، تيار الشوق يهزني فأسرع
أضرب الهواء الذي بدأ يتسرب اليه دفء النهار ..
ابصم خطواتي على الأرصفة ، أزجها في الدكاكين ..
وداخل الأبواب المشرعة ، أبحث أصرخ :
ـ يا رأسي ، أين أنت ؟؟
أكرر الصراخ ثم الهمس ثم الصراخ .. ثم ..
يأتي صوته دافئا :
ـ أنا هنا ...

وأراه بين أحضان الأرض الرطبة ، تمرح السعادة على وجهه وتتحدر ابتسامات ، تتوهج شبابيك عينيه المفتوحتين على عرس الحياة الدائم .

أدنو منه ، يبتسم ، أمد كفين مشتاقين ، فيستسلم لطراوتها ، أمسح عليه بحنان فيتذكر أن له قاعدة تنتظر أن يجلس فوقها ويستقر . أوسع فتحة عنقي ، أحمله .. أدسه في الفتحة ، يفرح .. أفرح .. يضحك .. أضحك .. أحسه يلتئم بالجسد بحرارة النظرة الأولى بين الأم والوليد المنتظر يسأل بصوت عذب :

ـ الى أين ؟؟
ـ سنعود ..
يحتج صوته ..
ـ الى ذلك الكهف العامر !
أربت عليه مطمئنة :
ـ بل الى توأمك المفصول المنتظر هناك .

أعدو .. ورائحة المدينة المرهقة معي ، أحملها .. أريدها أن تبقى ، أخشى أن تتسلخ عن لحمي وجلدي متصورة أنني سأرفضها أو سأخجل منها ، حين أصل الى ذلك المكان المعبق بأرقى انواع العطور .

أحضن اطرافي ، أخبئ الرائحة في جلدي ، أتنشقها لتبقى داخل صدري تفوح فيه وتشعر بالأمان .

لم يشعر بدخولي أحد ، كأنني ما غادرت ورأسي الى مكان ما ، كأنني لا أحمل رائحة تشق بعرقها أنوف الجدران ، وخلايا اللحم المشوي ، كل شي ، كما هو . الروائح الاضواء ، الاجساد الراقصة بفراغها ، الطاولات المفروشة بالمأكولات التي لو كانت هناك في تلك الأزقة لما بقيت لحظة واحدة .

أدنو من الطاولة التي يجلس عليها رأسي . كان غاضبا ما أن جلست حتى عاتب توأمه :

ـ لقد تأخرت .

ـ كانت رحلة لذيذة .

ـ وأنا جعت .

ـ وانا لست جائعا .

ـ هل أكلت في الخارج .

ـ لا يوجد لحم هناك .

ـ لكن اللحم هنا كثير .

ـ سلخ الأجساد التي تكدح تحت الشمس .

الجرسون يقترب بأدبه المصطنع ، يضع طبق « الستيك » المشوي أمامي ، أسمر كأجساد الرجال الحالمين بطعمه .

أمسك بالشوكة والسكين ، أضعها فوق قطعة اللحم أهم بذبحها ، أدوس عليها فأصيب عرقا ، ينفر دم أحمر ، اتقزز ، ترتعش يداي ، ارتعش كلي ، تثور معدتي ، أحس بأنني أمام لحم آدمي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقية ما في ص : 36

5 ـ المرجع السابق ـ ص 40

6 ـ المرجع السابق ـ ص 23

7 ـ انظر قول الشاعر : (اطل النفس بالآمال وأرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل) .

8 ـ المرجع السابق ـ ص 17 و ص 18

9 ـ المرجع السابق ـ ص 62

10 ـ راجع : المرجع السابق ـ ص 53 ـ 55 ـ 59 ـ 62 ـ 65

11 ـ المرجع السابق ـ ص 65

12 ـ انظر : ص 70 وما بعدها

13 ـ لعمري هذا ما أشار اليه بن أبي الضياف في « رسالته في المرأة » التي ردّ فيها على اتهامات لبون روش

14 ـ المرجع السابق [رسم] ص 92

** مداخلة ألقيت بالمركب الثقافي بباجة يوم 2 / 2 1996 وأعدتها الاذاعة الوطنية وسجلها برنامج « أمسيات الليل » للحبيب جغام .

رائحة القهوة ، وأحلام مشروعة

مروسية تامر
(العراق)

الشمس تخترق القضبان ، تدخل من نافذة عشية قديمة ، تسقط بمودة وحنان على وجهين نسويين ، امرأتين لوحدهما . غرفة دافئة ، ضيقة ، كرسي وطاولة مسند رسم اللوحات لا مشروع جديد عليه . ملابس معلقة في مسامير دقت في الجدار ... لوحات موضوعة على الأرض وأخرى معلقة أعتلاها الغبار قالت هدى ـ منذ وقت لم ترسمي لوحة جديدة ، أتكونين متعبة أم غادرتك فراشات الحلم الملونة .

قالت صديقتها زينب ـ لا أعرف بالضبط ، سأمة ، ضجرة ، أرسم لوحات لا ـ تألفها نفسي .. لوحات لا تنتمي إليّ .. أو حتى إلى مدارس الفن التي تعلمناها ، الفن من أجل الفن ، الفن من أجل الحياة ... أرسم لوحات لرحلة اصطلحت على تسميتها (الفن من أجل حفنة من الدينارات) هل سمعت بهذا ....

سقط القليل من ذرور ضوء الشمس في عيني هدى ، إرتدت إلى الوراء متكئة على الجدار .. مددت ساقيها أمامها ، أحضرت زينب أبريق القهوة ... وأعدت الأكواب ... تركت القهوة المذابة في الماء الساخن رائحة زكية وظلا حزينا . قالت وهي تضع حبات السكر في الأكواب ...

ـ تزوجت ... وأصبح لديك طفلا ممتلئا ، أبيض . شاهدته عند ولادتك .. كان جميلا .. كان جميلا جدا .. مزحة بائسة تلك التي تخيلنا منها أننا سنتزوج رجلا واحدا .. أليست كذلك .. لا أذكر كيف أقترحنا حينها اقتسامه .. الفكرة تضحكني الآن ...

قدمت كوب القهوة إلى صديقتها وأخذت الآخر ... ثم أضافت والابتسامة على وجهها .. أنا الآن لا أحتمل النظر إلى زوجك .. وأشعر أنه سبب ابتعادك عن أحلامك ... كيف اخترت هذا الرجل ليدخل حياتك ؟ أجابتها هدى .. وعلامة متمردة بيديها لتنهى صديقتها عن الاستمرار ـ لا تسأليني .. أنت تعرفين كل شيء ، أسميه فرارا ، هروبا ، خلاصا من البكاء ، من انتظار ما سيأتي . الحلم بلوحات منتشرة كالغرباء على البلاد . تتناقلها الأيدي ، المعرض ، يتكاثر الصحفيون ، يحتشدون تزدحم أسئلتهم . وأنا مطرقة الرأس أمعن التفكير في الإجابة ... باحترام جم أمتعتهم من كثرة الأسئلة . لن أستطيع الوصول إلى حلمي في هذا الزحام ، وبيتة مملوءة بالفث . تزوجت ، لم يكن زوجي المتآمر الوحيد على أحلامي ، وألاّ لانتصرت أحلامك أنت ... ثمّ أخذت رشفات متسارعة من كوب القهوة ووضعته قربها .

ـ كلامك يجرحني عن الرجل الذي أخترت ، أعرف أنه تغير ، أصبح رجلا لا يهمه أن يكسو أرضي بالبنفسج المزرق ، أو يحلق بي في سحابة عبر الفضاء البعيد . لا أناقضه ، لا أسأله لكني لا أستطيع منع روحي من التحليق وراء لذاذة سحر الأشياء .. لذا طرقت بابك .. ابتسمت

ارتشفت بقية قهوتها .. لملمت ساقيها متقرفصة ...

ـ هل أبثك سرا ، أكتشفته مؤخرا ، زوجي ينام بقربي ، طيبا ، طريا ، معتادا ، أجزل له العطاء ، حين أغمض عيني يتراءى لي ، رجلا آخر ، جديد ، أخرج معه في نزهة ، أدخل وأياه مساحات واسعة من الأوراق الصغيرة ، الخضراء ، الناعمة ، ممتدة بإمتداد البصر .. التي لكل هذا ، التذ ، بكل هذا التذ به ، أتآلف معه ، يطيب لي لكنه لا يدوم ، لا أستطيع أن أكون مثلك ، ترعبني الوحدة ، فقدت معنى الأشياء وجدواها . أنت تعيشين مع رسوماتك ، لوحاتك .

قلبت زينب كوب القهوة على وجهه بعد بُعد أن أنهته .. قالت

ـ تلك سخرية كبيرة ... لو اقتربت أكثر مني ، رسوماتي ، لوحاتي ، صور لوجوه تستحسرين البحاق فيها ، فكيف بوقتي ، تأملي ، فراغي ، ألواني ، وجوه خالية من التعبير ، من الحنان ، غير منسجمة التفاصيل . تحولت من الفن جميعا الى رسامة بورتوريت .. وضعت رأسها بين كفيها ثمّ رفعتهما ، فتحت عينيها قائلة ـ أعدت لي التمرغ في دخان سحابة ، قبل فترة أعطوني صورة رجل من مواليد 1906 توفي قبل ستة أشهر : أوه وجهه المجعد يعكس كل الخرابات التي وصلنا اليها . تساءلت أين ملامح هذا الرجل ؟لا عينان ، شفتان منكمشتان متداخلتان في فراغات أسنان منخورة أن أرسم هذا الجد ... ليس لي هذا القدر من التحدي .. أود التطلع في صورته لأحاول ... أضاف أن تواجهني روحي الشائخة فأصير بعمامة قطرها متر وفي أنفي حلق . ضحكت هدى قائلة ...

ـ رجل مات وانتهى ... لماذا يتمسكون بالموتى .. أنانية حمقا في الموت حين يذهب هؤلاء الى الموت لا نحزن عليهم ... أعتقد أننا نحزن على أنفسنا لأننا سنبقى بدونهم .

ـ لا أعرف بالضبط ، لكننا فعلا نحزن لأننا سنبقى بدونهم . فهم قطعا لا يشعرون أنهم ماتوا .. وهكذا نرسم صورهم ، نعلقها في منازلنا .. وننسى بعد فترة قصيرة ، ستصبح من ضمن الجدار .. حجرا ... أوه ... لماذا جئتِ ... ؟

لتفتحي تلك الهوة السحيقة التي أميل رأسي عنها ... كلما أنفتحت الهوة بين التحليق في بساط الجليد والسير على أسفلنا ضربته الشمس طويلا بين أشيال الحلم ... وتقطير الواقع ، قلبت هدى كوب صديقتها أخذته وهي تتطلع في عمقه تتقاطر منه القهوة ...

ـ فنجانك يبكي ... أنظري وهي تشير الى حبات القهوة المتساقطة .. مع كل هذا أقول أنت أفضل مني .. حاولت البقاء في الماضي ، وموازنة صخب الروح ، فتحت عيني هذا الصباح .. وأنا أستجدي الأشلاء من الفراش أفكاري سوداء ، معتمة ، بكى الرضيع فقمت مضطرة من فراشي ... أشعر أنه الوحيد بحاجة لي ، وأنه الوحيد الذي لديّ ما أعطيه ، القتمته صدري ..

وأخذت أسبح في فضاء من الوهج الصافي ، محتارة في ذاك الشجور الحزين الذي أنشق مع أول ضوء للفجر ، وضعت الرضيع في فراشه وتسللت لأدرك أنك محطتي هذا الصباح .. ماهي أخبار الرجل الذي قلت عنه دخل قلبي مرة واحدة ولن يخرج إلى الأبد .

قالت زينب .. وهي تمقت أنفها ، وتغمض عينيها ...

ـ خرج عندما استطعت اقحام رجل آخر في حياتي ، غيره ، تعلمت أشياء كثيرة عن الحب ،

أن لا لا أترك حبي في الظل ، لا أخفي سريانه في روحي كالدف ، كالماء البارد في أرضي المنسية ... كانت علاقة مشردة احتملت منها الخوف والتردد ... وصراخ أمي الدائم (أنت كالرجل لا تابهين ، أن أراد الزواج بك فليتقدم ، أو فليرحل والا نسميل نصيبك) وهاهي تعيد ذاك الكلام منذ رحيله ، بلهجتها التراثية وكلماتها الخشنة العميقة ...

وأنا لم أشعر أنه تركني في كارثة حين لم يتزوجني ... لقد ترك لي كثير من الفرح ... أنا أبتدأت الجحيم الخلاق لرغبتنا ، أنا التي داهمت صدره الحشيش الشعر وأنا التي داعبت شفتيه ... عند رحيله ترك لي صحراء مفتوحة وسعر قلبي لم أخف الوحدة يوما ، لكني خفت التراجع ، عند رحيله تراجعت كثيرا ، واستكنت ذاهلة .

ـ لم أعرفه كثيرا ، لكنه رجلا يشيع المرح والنكات .. قالت هدى .

ـ حقا كان يسعدني ، ربما تزوج ، أو هاجر الى بلاد أخرى .. حين يأتي الى موسمي .. أول ما يفعله يطلب آخر الصور التي تصلني طلبيتها ، لطيب له التندر على وجوه (الموديلات) هكذا كان يسمي الصور التي يعطوني اياها لأرسمها ...

كنت أتردد لأمنع عنه متعة التندر والسخرية من عملي ... محببا ... سخريته محببة ، لا أستطيع مجاراتها ولا استطيع الانزعاج منها خفف عن كاهلي الكثير من جحافة الواقع وتبسه ... تركني بمواجهة اثنا عشر لوحة لأناس توفوا ... لوحتان لنساء لوجوه عجرية وسيقان عارية يقدمن الطعام الى الزبائن ، ولوحات لعوانس يرتقن أحلامهن كذيل ثوب قديم .. وقد وقفن بشموخ ، أنهكن صفاء سحناتهن بخطوط الماكياج .. هل تعرفين ؟ أكره عملي ، أمقته ، أحب الفن . الفن هاجس ما انتهى منذ تعلمنا في هذه الغرفة حين احتجنا التعبير عن أنفسنا في سن المراهقة .. حين أردنا أن نتمرد على الدروس ، الرياضيات ، العلوم ، العربية ، ونقضي الوقت نرسم ، تغني ، نرقص ... قالت هدى كأنها تحاكي نفسها .

ـ ما زال طعم تلك الأيام ... الحبيبة وأن ابتعدت كثيرا .. هل حقا نحن ذاتنا .. أحيانا أشعر بالهدوء والصفاء وسط همومي الصغيرة ،العمل البيتي ، تربية الصغار ، تهيئة الطعام ، التلفاز ، فوازير رمضان لكن يبقى عصيا ، النوم ، النوم الهادئ ، الأرق مستمر ، الحقيقة تواجهنا هل سعدنا بما كان ليس من ضمن أحلامنا ؟... هل رضينا بسرقة أحلامنا عن بين أيدينا ... في أي المقاعد الخلفية قد رضينا ، هل وصلنا إلى أبعدها بربما رغبت في المجيء اليك لتعيديني الى صفوة أحلامنا معا ، يجب أن يتوقف كل هذا .. أن يحطم ، لكني ضعيفة القوى .. لوحدي ومشتتة .

ـ تساءلت زينب بأصرار صحو وهي تحاول القيام لتغيير ملابسهما ..

ـ هل تعودين الى احلامك ... أن نادتك الآن ... قالت هدى وضحكه صفراء مأخوذ من أطراف شفتيها ..

ـ الى أين تذهبين .

ـ سنذهب سويا لزيارة العراق ...

هيات الاثنتين نفسيتهما للخروج من المنزل ، تناولت زينب مفاتيح مرسمك وسارت بخطى ثابتة أمام حديقتها .. أعلنت قائلة

ـ هدى ... أول مرة ستزور العراق ظهرا

فتحت باب الرسم الصغير ... كان مظلما ، متوجا بكتلتا عشر لوحه لأناس ماتوا قالت زينب أنلي وباستطاعتك من لوحات ... وقفت هدى محتارة في ذلك الشيطان الذي بيث صديقتها الأرواح والقوة ... لم تسألها .

تحركت الاثنتين داخل المرسم ، يرقمن اللوحات من الجدار ... ليترك فراغا أبيض قرب فراغا أبيض ...

أومأت زينب لسيارة أجرة ... توقفت السيارة ، حملت مع اللوحات جميعها ، صعدت الاثنين ... انطلقت بهما السيارة ، مقتربة من النهر الذي بدا قويا ، لامعا ، رقراقا . أنزلت اللوحات ... أشارت إلى صديقتها الى ـ النهر ... ليغتسل كل شي ء ـ

ثم ارتفع صوت ضحكهما وهن يتطلعن في صفحة الماء الملونة وملامح وصورة ترتفع لوحاتها ، مبتعدة . تلون النهر ، لونا يخترق لعنا آخر ...

قالت زينب ... لو كنت رسمت الجد ... لما منعته متعة هذا العقل الملون قد تختلط فيه الملامح فيصير ساقي غجرية ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقية ما في ص : 60

الدّماء ... دماء ... والماء ماء ... وإبراهيم يذبّح أبناء ه كلّ عيد ... لقد غاب الفدايا أيّها الشيخ الخليل ... وأضحت نبراتك القديمة تلاك كسفْر الغدر والسّمع والنهش . كم كنت تعيد وتعاود وأنت كجنديّ فقد نياشينه « الّليل ليل ... والنّهار نهار .. » لعلّك تذكّرت البقيّة ولعنت سليمان المنطقيّ في قبره ... أو لعلّك نضحك من عقارب المنطق المنطق المعكوس ... أو لعلّك ستبكي من الدّولاب في غير محلّه ... العن ... اضحك ابك ... إنّها أبجديّات جديدة ... كاغنية آخر سكّيروهو يودّع غرناطة ... كلحية عبد الله الصّغير الذي ضيّع المفاتيح ... تفقّد مفتاحك أيّها الشيخ الجليل انتهت جوقة الكحل والصّديد ... ولابدّ أن تجوس المدينة ...

مسقط في 12 سبتمبر 1996

حالــة قــلق

بقلم : سليمان بلعيد سحاب
(ليبيا)

لا أدري ما الذي يعصف بداخلي ويطحن ذاتي .. ثمة شي ء لا أعرف مبعثه . أرقني وطرد النوم من جفوني .. إحس بوطئه يجثم فوق كاهلي . كالهم على القلب . يغزو روحي يصيبني بالغثيان والقرف . ويجعلني لا أتورع عن ازدراء نفسي واحتقارها .. أوشك أن انفجر أن اتشظى . الى ذرات دقيقة تتداخل سابحة مع الهواء .. اشعر بغربة كئيبة تخرم جسدي وتخلخلني من الأعماق . من الجذور ، حتى انصهر فيها وألج عبر مفازاتها ودروبها وهيم في صحاريها اللامتناهية المدى . أدرت مؤشر المذياع قليلا . ثم أوقفته عند التقاط أنغام موسيقى هادئة . وناعمة الوقع كالبلسم . أضفت شيئا يسيرا من الارتياح الذي تحن له نفسي المحاصرة بأعداد هائلة من اشارات التعجب والإستفهام . والحائرة بيله صارخ وسط زوامة اللافهم .. لاشي ء عندي أفعله في هذه الليلة المأروقة . سوى أن أحاول التمدد باسترخاء . وارهف السمع بتمعّن . لأنغام الموسيقى .. الليل يسيل ويلفني بعباءته . فيما رياح نسيانية خفيفة تدور وتمرح متبخترة بدون جواز سفر .. يطرق سمعي هسيسها الخفي الذي يكتنفه الغموض . كالشي ء الغامض المتغلغل . بداخلي كقلق المدمر ... لم تفلح جرعات الموسيقى في الإيفاء بالغرض أو أن تحد من نوبات القلق المتواصلة .. نهضت من مرقدي .. دنوت من النافذة المفتوحة وشرعت اتملى بالتطلع في الصفاء الماثل امامي ..

كانت السماء تتجلى كعروس . وتبرق بوهج مجوهراتها . والقمر يختال ضاحكا ويشع وجهه بالضياء ... شدني سحر اللوحة المرسومة بريشة مبدع الكون ... اشياء كثيرة راودتني ، احسست بصفاء روحاني يغمر نفسي ويضيئها في تلك اللحظة الخاطفة كالومض ... تدفقت كاسيل .. همست بالكثير .. استغفرت .. ابتهلت .. تضرعت .

دعوت وطلبت العون ... انسفحت دمعة طازجة . تحرجت عند شاربي الخفيف الشعر . انسفحت إلى عدة مجاري سقت شفتي الكالحتين .. إستطعمت مذاقها المالح . لملمتها مع شتات لعابي الممزوج بها وتقلتها .. اقفلت النافذة وأطفأت النور وتمددت في محاولة اخرى للولوج في عالم النوم .. بت الآن وحيدا مع الأرق والموسيقى والظلام الذي ما انفكّ يلازمني منذ أن لفضني رحم أمي .. فجأة وبدون سابق إنذار توقفت الموسيقى لبرهة، ثم انبعثت إثرها موسيقى صاخبة . تصور لوحة مأسوية مترعة برعب النفس من المجهول .. من الآتي . من الذي لم تتضح معالمه بعد .. بت أشعر وكأن أشباح شريرة . تتقافز بحذر بين جنبات الليل . تتلصص عليّ بوقاحة سافرة . وترقبني بعيون خرزية براقة . وتخرج لي ألسنتها النارية .. مددت يدي بحذر خرافي البط ء واقفلت المذياع .. تمنيت في قرارة نفسي أن يسيل الهدوء في شراييني وتسري السكينة في المضغة القابعة في الجهة اليسرى من صدري المحموم . ولو لثانية . إلا أن هذا التمني

سرعان ماتبخر ولم أحظ بما تمنيت .. أصخت السمع . انتصت برهافة اذن مخابراتية مفرطة الحساسية . فتاكدت بيقين لا يتطرق إليه الشك . بأن هناك من يحوم أمام باب غرفتي .. شخص يحوم أمام الباب !!! .. من يكون يا ترى ؟ .. وماذا يريد في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ .. حتى اخوتي ناموا وشبعوا نوما .. فمن يكون ؟ .. هممت بالنهوض لافتح الباب وانظر من بالخارج . الا انني أحسست وكأن قوة جبارة تجذبني وتشدني الى الأرض .. يا الله قلبي سينخلع . الرعب يلدغ أوصالي . ماذا أفعل مع هذا الذي خلف الباب ؟ .. مرت لحظة كالدهر .

ايقنت بعدها إنه وضع يده على أن أكرة الباب . ثم أدارها ببط ء ممیت حتى أنفتح خلته سيدخل ... ولكنه الخبيث توقف وراح يصدر فحيحا افعوانيا وضحكات شريرة . كأنه أراد بذلك موتي والقضاء علي رعبا . كان ضو ء القمر المتدلق من فتحة الباب كافيا ، لأن أراه بوضوح ..

كان جسده ناحلا وقد علته البثور والفقاقيع الفطرية القبيحة حتى غدا كورقة " بوستر " عشوائية التلصيق . بدت تضاريس وجهه كالدمامل الخبيثة .. كريها بشعا ورؤيته لا تطاق .. ماذا أفعل والرعب يسرح في جسدي . حتى تسرب الى الخارج وعم كامل مجال الغرفة .. وددت أن أصرخ لعل أحد اخوتي يستيقظ ويخلصني مما أنا فيه . ولكن دون جدوى . فقد أبت حنجرتي أن تطاوعني ورفضت الانقياد لتوسلاتي . أصابها الخرس المسكينة .. اخرسها الخوف المتنامي في عروقي ... شعرت بالاختناق وصعوبة التنفس . ودب خدر الموت في جسدي مرت لحظات والشبح يتوسط الباب كالشرك المنصوب . كالفخ القاتل أمام مغارة ذئب . ويتلذذ برعبي ثم ركل الباب برجله وتقدم . بعد أن مسح بيده المعروقة ما تبقى من آثار ضحكاته . يسبقه فحيح كحشرجة الموت . تشبعت به أجواء الغرفة .. كان من الواضح تماما أنه مصمم على قتلي ... في تلك اللحظة . دبت الحركة في أوصالي وشعرت وكأن أثقالا قد انزاحت من على جسدي . فأختطفت المذياع وقفزت صوب الباب كالإعصار . لا ألوي على شي ء . وقد تمزقت حنجرتي على صيحة انشق لها جدار الليل .. بعدها لم أشعر بشي ء ولم أع ما حدث .. أظن إنني سمعت صرخة ألم وتوجع .

أو هكذا خيل إلي .. أضأت المصباح ويممت بصري في الغرفة . فلم أر شيئا سوى المذياع الذي اصبح في خبر كان . وقد تناثر إلى قطع صغيرة . واندبقت امعاؤه كاعهن المنفوش .. انطلقت إلى خارج الغرفة . أتلصص وامسح المكان .. لم يكن يوجد شي ء إلا أن اغلب نوافذ الشقق المجاورة قد أضيئت لحظتئذ . ثم عتم بعضها بالسرعة التي أضيئت بها . وبقي البعض الآخر مضاء .. كان رأسي ثقيلا . أشعر به ويجثم بين كتفي كالمدحلة .. فيما كنت احادث نفسي متسائلا باستغراب . ما الذي حدث يا ترى ؟ . من يكون هذا الزائر المرعب ؟ ! .. بالتاكيد هو ليس كابوسا مفزعا أو اضغاث احلام . لأنني لم أغف . ولم أذق طعم النوم . ثم من الذي أيقظ سكان الشقق المجاورة في مثل هذه الساعة . هل هي الصيحة التي شقت سكون الليل وتلوث الجو بصخبها ؟ . أم موعد صلاة الفجر الذي حان بانطلاق صوت المؤذن من الجامع القريب في نفس الوقت الذي انطلقت فيه الصيحة وأنا انقض على الشبح ؟ ...

بقـــمـــة زيـــت

بقلم : د . سليمان الشطي
(الكويت)

بعد صلاة العصر .

أسند الشيخ ظهره على العمود الأسطواني الكبير ، أدار عينيه في الجموع التي تحلقت حوله . مد رجله ، كشف ساقه وتحسسه ، وعلى غير العادة لم ير الحاضرون قطعة القماش الخضراء التي كانت تغطي هذا الجزء من الساق ، وانكشفت بقعة سوداء قاتمة ، عليها بقايا غبرة في أطرافها ..

أشار إلى ساقه ، وتحسّس البقعة ، ثم قال :

ـ هذه ذكرى باقية من الحكاية التي سأرويها لكم اليوم . لم ينتظر ليستمع الى الاستفسارات المعهودة . كانت الحكاية تملؤه مندفعة إلى الشفتين :

ـ أوائل صفر من عام اثنين وأربعمائة للهجرة ، كنا على مشارف مدينة (....) ، وقد عانينا أياما عاصفة مغبرة تلاها جراد أكل الحياة . لاقتنا أرضها ، سبخة ، يعلوها نشع أسود ، ولكنّنا مع هذا أحسسنا بأنها بلدة آمنة . انخنا مطايانا تحت السور .

سور طين ممتد ، بوابة كبيرة مرتفعة يمتد فوقها برجان صغيران ، قضينا ليلتنا متكئين على متاعنا الليل كله . ومع الفجر فتح الباب الكبير ، دبت حركة الحياة فينا ، واندفعنا لنجتاز البوابة ، وفي وسط الهياج والجلبة صاح صانح :

ـ أيها القوم ، لا يتحرك أحد منكم ! رسول الوالي يحدثكم . وتقدم الرسول ، توسط بحصانه جموعنا ، قلّب نظره فينا ، وصاح :

ـ أيّها القوم هل بينكم طبيب أو عراف أو حكيم ؟

وسكت برهة ثم واصل :

ـ ان كان بينكم واحد فليجب الوالي

جلبة وهمهمة أعقبها صمت حذر ، بعض الأنظار اتجهت اليّ وصاحبي ، أحسست بأنهم يأملون منا شيئا ، كانوا تجارا مشفقين على قافلتهم ، ولعلّهم يكسبون خيرا من تقرب الحاكم لنا . أصبح الصمت مقلقا ، أمسكت بيد صاحبي وهمست له : توكلنا على الله ، وصحت :

ـ سأذهب معكم

وانفجر صوت الفرح بين أفراد القافلة

تغلبت على حرج الموقف وقلت مبادرا :

ـ يا مولانا . لسنا من الحكماء أو الأطباء أو العرافين ، ولكننا نجوب الديار فنأخذ من حكمة الشعوب ونحفظها لنستفيد منها عند الحاجة ، فهي ليست حكمتنا ولا طبنا ، ولكنها التجربة التي نخزنها ونضعها في مكانها بتوفيق الله . وها نحن بين يديك ونضع أنفسنا في خدمتك إن وجدت

لدينا أي نفع .

ورفعت عيني باستحياء ناظرا اليه ، فأحسست بأنه ليس معي ، مطرقا مفكّرا ، وحوّل أصبعه باتجاه الوزير فتكلم هذا :

ـ لعلّ قد وصلتكم أخبار الرياح العاتية التي هبت علينا منذ أيام .

قلت :

ـ بل لاقينا منها عنتا ، ونحن في طريقنا اليكم ، لولا عناية الله لتفرقنا شذر مذر .

وواصل حديثه كأن ملاحظتي لم تمس أذنه :

حاقت بنا منها مصيبة عظيمة ، كما ترون ، نحن نعيش على هذا الساحل ، حياتنا معلقة في البحر ، نحن نعرف حقيقته ولكن لا بد مما لا بد منه ، وعندما هبت العاصفة كانت سفننا كلها في البحر ، لقد كلأت العناية الالهية العاملين في الصيد والتجارة وأنقذتهم جميعا ولكن ..

ـ الحمدلله .. الحمدلله .

ـ ولكن المصيبة الكبرى !

وازور بنظره نحو الوالي الذي انتفضت أطرافه :

ـ ابن مولانا مع اثنين من مرافقيه ، كانوا في رحلة صيد بحرية وقد هبت العاصفة عليهم وهم هناك ، وقد بحثنا بعد أن قذف البحر بمن فيه إلاّ ابن مولانا ومن معه ، يئسنا ، وكلّت العيون ولم تطرف بأي أمل ، لم يبق أثر أو وهم أثر إلاّ وقد تابعناه .

وأمس فقط ، بعد أن انقشع الجراد ، قذفت الأمواج بأحد مرافقي ابن مولانا ، وهو بين الحياة والموت ، لا يعي شيئا ، وقد طلى جسمه بقار أسود ، غطاه كله ولم يبق من بياضه إلاّ بقعة صغيرة من بياض العين ، قار رهيب بذلنا كل جهدنا كي نزيله فلم ننجح إلاّ قليلا .

صمت برهة . أزاح طرف كمه فبان ساعده

ـ أنظر . هكذا !

كان القار الأسود يغطي الساعد بكثافة واضحة .

ـ حاولنا . أحضرنا كل ما لدينا لإزالة هذا السواد ففشلنا ، كنا نحاول معه ، في الوقت نفسه ، لمعرفة أي شيء يهدينا إلى مكان ابن مولانا . أسجيناه وبذلنا معه ما استطعنا ، أمس مساء تحركت شفتاه ، نشط نشاطا غريبا حاولنا أن نسمع منه ، ولكنه كان يتحدث كلاما غير مترابط أو غير واضح ، حار حكماؤنا وسقط في أيديهم وأعلنوا عجزهم . فأرسل سيدي رسائل كثيرة يستنجد بها ويستدعي أشهر الحكماء ، ولكننا نخشى فوات الأوان . لذلك نحن نبحث عن أية معونة . لعل عجزنا يزول بكم . نريد أن نفهم لنصنع شيئا .

انحنى رجل دخل لتوه ، للوزير وهمس له بشيء . وهو يهز رأسه ، ثمّ قال :

ـ إن هذا الرجل يخبرني بأن كلمات الغريق بدأت واضحة ، ولكن المعاني قد غمت عليهم .

التفت الى الوالي :

ـ هل يسمح مولاي باصطحابهم إليه ؟

وأومأ بالموافقة !

قال الشيخ :

- لم يكن لدي أكثر مما أعطيته ، بقية من أعشاب تثير النشاط في الإنسان ، وهبني اياها تاجر يماني ، راعني نشاطه وخفة حركته ، سألته . فأعطاني حزمة منها ، فاحتفظت بها .

كنت أنتظر استجابته بعد أن تجرع السائل الذي أعددته ، خامرني احساس بالنجاح حينما بدأت بشائر اليقظة تغزوه ، بريق الحيوية لا تخطئه نظرة من تابع هذا الجسد المسجى الأسود بما عليه من قار راكن . أردنا أن نحد من تمتماته غير المركزة بالسؤال ، أمسكت بيده اللزجة ، بلعت ريقي :

هيا اخبرني . ماذا جرى لكم ، أين ابن مولانا ؟ تحدث . هل تذكر شيئا ؟

برقت عيناه ، تهلّلت أساريره كأنه رأى شيئا أو تذكر رؤيا جميلة في أوّل الصباح ، كان بريق عينه وسط سواده الكثيف يكشف أنه أصبح بعيدا عنا ، كان هناك من حيث أتى ، ما في صدره من قول يرتفع ليطغى ويستحوذ ، تقاربت بعد ذلك خطوط جبهته ، وبدأ يروي ، أحسسنا بالفهم ، الهمهمات والكلمات الخاطفة بدأت تستقر وتترابط .

وبدأ يحكي :

.. كنا بين أمرين : هذه الجزيرة الجرداء التي تحمل توقع الموت فقط ، وهذا البحر الذي قذفنا أمامها ، لا نعرف ما وراءه . لقد حكمنا خوف مرعب بعد مواجهتنا للعاصفة ، لقد كشفتنا فأصبحنا عراة أمامها . خائفين . وجلين مسلوبي الارادة . لم تعد سواعدنا تقوى على شيء ، ننتظر ونستسلم للقدر يفعل بنا ارادته . ما زالت ذكرى اللحظات التي عشناها في البحر مستسلمين للجنون الغاضب الذي أحاط بنا ، لم نجرؤ وقتها حتى على مد أيدينا إلى بعض أو نحتضن بعضنا خوفا أو بحثا عن أمن . أعيننا الزائغة تهرب من حولنا ، كأنّ قارينا خلا من نفس بشري ، كنا الاستسلام مجسدا حتى انتفضنا معا على ضربة قوية في قاع القارب .

الأرض مرة أخرى ، قفزنا بلا شعور ، وألقينا ، وسط العتمة بأنفسنا في الماء ، جرينا نشق الماء بصوت واضح . وعندما وصلنا واستلقينا مدة تذكرنا القارب ، عدت وزميلي اليه ، بينما استلقى ابن مولانا على الرمل ..

من هدوء ما حولنا أدركنا حصارنا الذي نحن فيه ، ومع أن احساسنا بالعجز باق ، فإنه ما دامت لنا قدمان فلنتحرك ، أصبح الاستطلاع ضرورة ملحة ، تسويفنا العقلي لا مبرر له ، أدركنا أننا وسط رمل أجرد ممتد وسط ماء بحر ، محاولتنا في البحث محكوم عليها بالفشل . بدأت أرجلنا تحس مرة أخرى برودة الماء الذي سنعود اليه حتما ، لذلك كانت أعيننا تمتد إليه ، ولكننا مكسر الطرف بحدة لنعود مرة أخرى الى الاحساس بذرات الرمل التي تباعدت وتجمعت لتشكل عالما متصلا ومنفصلا .

باطن أصابعنا تغوص لتنتفض بحركة عصبية فالرمل متحجر ، وهمّ الخوف يهز داخلنا بقوة ، هل نحكم على أنفسنا بالعودة مرة أخرى ، نظرت الى ابن مولانا المطروح أرضا ، كنا نريد قرارا ، عينا الجسد المسجى تقول إنه لا يقوى على التفوه بحرف ، ليته يأمر ، إنّنا الآن فقط سنقبل برضا أي أمر يصدره ، ولكن كل استطاعته توارت خلف جفاف العينين . لا قرار ، لو

نطق صدى صوت لقبلنا دون مناقشة . ها نحن وسط كون خال تلفه أوليات العتمة ، كل واحد عاجز عن التفكير المنفرد ، وغير قادرين على أن نجتمع . ورأيناه !

خطف أبصارنا المشتتة فتركزت فيه ، قوة جذبة كانت طاغية بشكل واضح ، وقد لاقى الجذب عجزنا فاستلبنا .

لمع مرة أخرى ، ثم ثالثة ، وأضحى ينعكس بقوة مع الشمس الغاربة ، لم يقل أحد منا : انظروا ! . ولكن أعيننا شدت الى زاوية واحدة ، نقطة اللمعان ، شيء جديد يحيط بنا .. انتفخت صدورنا بهواء كثير ، لقد جاء المنقذ ، وأحسسنا لأول مرة ، بأن أقدامنا العارية لم تعد تقوى على احتمال ذرات الرمل الصلبة التي تتدس بين شقوق أكعبنا ، فاشتاقت الى انسياب الماء من جديد . حالة جذب بثت في خلايانا نحو هذا اللامع ، رأيناه وسط محنتنا طوق نجاة حبيب ، وجها مألوفا ينبعث بين موجة وأخرى ، يتكاثر ، يملأ أعيننا فلا نرى إلا إياه .

نظرنا الى بعضنا ، كأن الخاطر قد نزل علينا بصيغة واحدة ، أو سمعناه من فم واحد ، يحكمنا قرار واحد واضح ، ومع ذلك تناقشنا وقتها لنؤكد هذا القرار ، وكانت مرة يتيمة :

ـ أنبقى في هذه الجزيرة الجرداء أم نعود إلى البحر مرة ثانية ؟

قلت لهما :

ـ ولكن ! هل نعود الى قلب العاصفة ؟

قال زميلي :

ـ البحر هلاك ، الأرض أكثر صلابة وأمنا

ـ ولكن البحر أوسع أملا

ـ هل نبيع صلابة الأرض بأمل سائل

ـ خير من حكم العدم

ـ قد ننجو

ـ قد نهلك

غريب هذا الأمر نتناقش دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر ، شدت أعيننا الى ذلك الشق اللامع ، نتحدث بعد أيام من جفاف الحلوق . بل لقد ندت نكتة من صاحبي كعادته ، وبدلا من أن أستحضر القصائد القديمة ، كما كنت أفعل ، أحسست بأنني أمتلئ بقصيدة جديدة ، سرحت معها . ننجو ؟

لحظة ثم تكسرت ذرات الخوف ، وهيمن الأمل والفرحة والممكن والمحتمل ، كل هذه دخلت في حيز الحقائق ، رأيتني أنشد قصيدتي على مرأى من أناس جدد ، ملابسهم مطرزة ، عيونهم مفتوحة بنشاط بعد نوم طويل .

قررنا ! وشق قاربنا طريقه بصدره نحو اللمعان الذي بدأ يتلاشى قليلا بتناسب واضح مع ميلان الشمس نحو المغيب .

وساد الظلام ! .

تلاشت تدريجيا أصوات حبيبات الماء التي كانت تضرب جوانب القارب ، أحسسنا بلزوجة

تدريجية . واصلنا التجديف وردنا ثقل المجاديف الى التعب الذي ران علينا . لم نعد نتحدث أو نتشاور ، كل واحد يفعل ما يشاء ، ابن مولانا ينام ويستيقظ ، صديقي يتذكر نكتة ، يرويها ، ثم يصمت ، يجدف ، يلقي المجداف . أصبح التجزيف متعذرا ، لقد تمكن التعب منا . فنمنا ..

أحسست بالنهار على جلدي ، لهيب يشقه ، ولم أقو على الحركة . لكزني أحدهما :

ـ أنظر !

اعتدلت ، مددت يدي الى جانب القارب لأزيل بقايا نوم تعب ، لزوجة ، نظرت ، كانت يدي تحمل طبقة كثيفة من زيت أسود كالقار .

ـ أترى ما أرى ؟

مهما امتد البصر لا يقع الا على هذه الطبقة السوداء . وعلى الأطراف البعيدة تتكسر أشعة الشمس لتعكس أضواء متفاوتة الألوان . قلت :

ـ أرى ؟

سؤال صاحبي وردي يحمل هلعا واضحا ، قال :

ـ هل هذا الأسود هو النور الذي رأيناه أمس ، أم ذلك شيء آخر ، ترى أضللنا طريقنا في الليل ؟

قال ابن مولانا وهو يشخص بعيدا :

ـ ليس هناك من شيء إلا هذا .

ـ لعل هذا هو بحر الظلمات يزحف علينا .

ماذا نعمل ؟ . سؤال يطل ولم نصرح به ، لا فائدة من الحديث ، ولكن :

ـ نعود ؟

ـ الى أين ؟

الى الجزيرة مرة أخرى !

ـ نسيتما أننا كنا سنموت فيها حتما

ـ المشكلة كيف نعود اليها مرة أخرى ؟

الشمس تلهبنا ، الأطراف التي طالها الزيت يشتد أوارها ، لا بد من الحركة فالسكون موت محقق ، وجدفنا لعلنا نجتاز هذه البقعة .

قلت :

ـ اتجاهنا عكس الجزيرة ، يعني نحو بلادنا ، لعلنا نتجاوز هذا ونصل .

قال ابن مولانا :

ـ وننتشل ، حتما أقام والدي الدنيا وأقعدها .

ـ آه . نسينا يا مولاي أن معنا ابن الوالي !

لم نعد نملك استطاعة نسيان هذا اللاهب الذي يفجر فينا الحمم من كل جانب ، جلودنا تكاد تشتعل مع حرارة الشمس ، قوانا خائرة وجفون عيوننا مثقلة ، كأن حبالا تشدها الى بعضها كي تنطبق ، لم نعد نرى إلا خطا تختلط فيه الرؤى . نسمة عابرة تأتينا مع العصر ، كررنا

محاولة النظر ، واستطاعت أعيننا أن تتحرك لتشمل البقعة دائريا لتحتوي أقطارها الأربعة .

سكون مريب وسط مقدمات العتمة ، كأننا قد بدأنا نألف اللون الأسود ، أعيننا تدور ، ففقدان الأمل لا يلغي الدوران .

وفي وقت واحد توقفنا عند الشمال !

ست عيون تتوقف عند ملتقى واحد ، نقطة تشابك حولها النظر ، ساحرة خلابة ، وفي خطفة سماوية انسل التعب ، وكأن خراجا يثقلنا قذف ما فيه ! استرخى كل واحد منا في بقعته ، وانظارنا متخشبة تتأمل وتسبح في هذا العالم الجديد الذي انفتح أمامنا .

لا أدري بعد كم من الزمن قلت :

أترون ما أرى ؟

لم أسمع شيئا ، كانا في عالمهما لا يستجيبان لأية حركة خارجية .

ـ أمر عجيب ! . هل ترون ما أرى ، أم أنا وحدي في حلمي ؟

وضعت يدي على جبهتي دلكت عيني ، مددت يدي الى الماء الزيتي ونضحته على وجهي لأتأكد ، فزادت الرؤية وضوحا ، ما أراه صحيح ساطع ، نظرت الى راحة يدي ، سوداء لا شك فيها ، أما الأفق فهو باق واضح لا مجال للشك :

« في اللجة ، وسطها تماما تتدرج بقعة الزيت صعودا ، ترتفع مع سير النظر ، مثل تل بارز في صحراء مستوية ، والألوان تتدرج فيها من السواد القاتم فالأقل سوادا فالأخضر القاتم ، وتمر عليك الألوان زاهية حتى تصل الى الشفافية المنيرة ، والأشكال تتمايز مع كل مرحلة لونية ، تقدم عالما خاصا ، هذا الأفق أرض ربت فنز ماؤها فابعثت الوان النبات ندية تحس طراوتها وليونتها بين أصابعك . »

استولى هذا التل على بؤرة التركيز ، خالجني خاطر : هل هذا ممكن ؟ « القبر روض من رياض الجنة » ، فهل أنا هناك حقا ؟ . ولكني أعرف نفسي جيّدا ، ولو دخلت الجنة فلن يكون هذا مبكرا ، لعلني صنعت خيرا في دنياي ، ولكن : متى وأين ؟ وتذكرتها .. صحيح كنت أرعى أولادها ، وقد احتضنتني هي وأعادت ثقتي بعد يأس ، ولكن أين ذهبت شهوتي التي لم أستطع أن أدفعها كلما جلست معها ، كانت تقطر بحدة ، هل تفضل الأعمال عن النيات !

ولكن هذا عالم حقيقي . إنني أكاد ألمسه لمسا ، لقد أعادتني قمة التل إليها مرة أخرى ، ألفت ما حولها . فكلما ارتفع النظر إلى أعلى سابقه حتى توقفت عند القمة مشدودا إلى الكاشفة لكل ما وراءها :

طوابق من غرف زجاجية واسعة ، بعضها يفضي إلى آخر ، يتملكك شعور باتساعها الذي لا يحد ، مع هذا الاتساع ، قد خلت من أي شيء ، ولكنها ، مع ذلك ، مملوءة بأشياء لا تحصر عدا ولا تحدها أو تعرفها الأسماء ، جديدة ، خارقة الجمال في ألوانها وأشكالها ، وزخارفها التي لم تر مثلها ، كل ما فيها يتحرك بذاته ولكنها تنطق بمصادرها البعيدة : الهند ، والسند والصين وبلاد الافرنج والفال . من عالم بعيد غريب وضع فيها كل فنه ، تحيط بهذه عيون جارية ، تسمع تناغم الماء والحصى ، وفي الداخل ترى الأرائك المرتفعة ، والزرابي المبثوثة ، والنمارق المصفوفة .

وازدردت ريقي المتخشب حين رأيت زجاجات تشف عما فيها ، ليس بين أية واحدة وأخرى شبه في الشكل أو الحجم أو اللون ، شعرت بلذعاتها في لساني فترطب فمي ، ومع ذلك فإن ما فيها محفوظ لا يغادرها ، ولكنه في الوقت نفسه يسيل منحدرا إلى أعماقك .

وفي وسط هذه الغرف الفسيحة ، تبرز بوضوح قاعة رئيسية هي القلادة المتوسطة وقد اصطف على جانبيها رجال متكئون على النمارق ، لحي بيضاء صافية كرمل صحراوي ، ملابسهم خالية من أية زركشة ، ولكن انسيابها يدل على غلائها ، من بين الزصابع تنحدر مسابح صندلية تفوح منها رائحة يكاد يخنقك عطرها . خواتم زرقاء وبيضاء لا تستطيع النظر إليها ، تخطفك لألئها ، عالم آخر جديد لم ألفه ، ولكن الوجوه أعرفها جيدا .

جلسة دائرية يسودها وقار ، قرآن يتلى ، لم أر قارئا ولا مصحفا ولكن الصوت السماوي يضرب في أنحاء القاعة الضخمة فتزداد شفافيتها ، فتكاد تطير بنا وبهم .

قلت في نفسي :

ـ هذا عالم روحي ، لا شك في هذا .

وانتابتني نشوة أنستني كل شيء كنت مشدودا للعالم الذي أمامي :

.. تحرك أحد الجالسين ، جذب نظري معه ، وبدأ الصوت القرآني يتلاشى ، توسط القاعة ثم أخذ ينزل من سلم وعيني معه . غاب جزؤه الزسفل ليظهر في الغرفة السفلى .

أه ... ما هذا ؟

كلما نزل بان جسده ، بدأت أرى عُريه ، ثيابه كما هي باقية ولكنها تشف كزجاجة بيضاء ، فلا حاجب يحجب . الساق ، الفخذ ، العورة ، والوجه اكتسى بلون زيتي لامع . الساقان تحملانه ولكنهما يتحركان بارتعاش منتش .

القاعة السفلية تداخلت أشياؤها ، عالم مختلط ، الزجاجات تقذف ما فيها ، وظهرت جموع من نساء ، كل ما عليهن يلمع ، يجعلك مدهوشا ذاهلا ، مستلقيات بأوضاع لا حصر لها ، لماذا قفز ذهني إلى الرقم خمس وخمسين وثلاثمائة سنة ، مختصرة في أوضاع جنسية . نعم ، لقد أصبحت رائحة النشوة الجنسية تعلو على أي إحساس آخر . النساء لابسات ، ولكن لا شيء مغطى ، واضحة كل المعالم ، رغم الملابس الفخمة المناسبة اللامعة ، وضوح تحت الشمس ، لمعان يعري الزوايا القاتمة فتشع لامعة لكل ناظر .

شكل خارجي محتشم مستور ، ولكن به داخل واضح مبتذل .

واختلطت الغرفتان : العلوية والسفلية ، رأيت الرجال المحتشمين في الغرفة العلوية ينحدرون واحد تلو الآخر ، وعندما يتجاوزون البرزخ الفاصل بين الغرفتين تبدأ الملابس تشف عما تحتها ، بدأ الصوت القرآني يخفت ثم اختلط بغناء جيدا ، أحفظه لطالما سمعته عندما كان الليل والخمر قد أخذا حقهما مني كاملا . ولكن ها هو الآن الصوت يصرخ به جهازا .. لو لا خبرة سابقة لما استمعت أن أميز شيئا بعد أن اختلطت وتداخلت وانطرحت الأجساد كأغنام مسلوخة ، واحتوتهم لحظات التمرغ فوق السجادة الخضراء وتشبع الجو باللذة ، عالم يغريك مرة بالتفرج عليه ، ويدفعك دافع قوي لأن تدخل فيه . ولا تدري أيهما تختار ؟!

لم أعد أميز فقد تلاشت الفروق بين الغرفتين ، وتحطم البرزخ الفاصل ، من فوق كمن هو تحت ، الكل عار كأس ، رأيت اجتماعا يعقد ، وأوراقا مبسوطة وفجأة تتغطى بجسد امرأة .

وانتزعني صوتا صاحبي ، فقد نطقا معا :

قال ابن مولانا :

ـ هذا ما أريده بالضبط ـ هذا عالمي . أعرفه جيدا !

وألقي بنفسه في الماء الزيتي ، بينما كان صاحبي يقول :

ـ هذا العالم أحبه ، هناك بغيتي ...

وتتبعه ..

لحظات خاطفة وإذا هما هناك ، صعدا التل ، تدرجا في الصعود بينما كان السواد يلطخ ثيابها المبلولة ، مدا أيديهما فإذا هما وسط الغرفة ، قد شف جسداهما من وراء الثياب ، عاريان تماما ، سوادهما الزيتي باق ، واختلطا بذلك العالم .

تملكني خوف رهيب ، أردت أن أستيقظ ، لولا أن شدتني حركة في غرفة علوية ، تخللت الخياشيم من عطر يتقدم فيملأ الغرفة ... هبط قلبي برفق كأنه كان يتوقع ما يرى ، رأيتهما : همست كأني أحدث أحدا حولي :

ـ هي لا غيرها ... ميمونة ، وجدتها أخيرا ، هل يمكن أن يستيقظ الماضي ، هل يعود بعيدا عن لحظات الحزن التي أسلمتني للضياع . لا يمكن أن يكون هذا خيالا ، وجهها القمري خلا من أي عيب ، لن نستطيع أن نعلق على حالة السحر ، أو نسجل حالة الجذب الكامن هناك ، لن أنساها أبدا ، أطياف ذلك الوجه حينما يطوني الوهن في زيام الخيال الأولى ، عندما كانت شفتاها وبريق عينيها عالمي الذي أهيم فيه ، لحظات السكون القديمة التي كنت أتأملها ..

ها هي أمامي ، بعد زمن طويل فصل بيننا منذ أن حملها زوجها معه بعيدا ، ثم جاءت أخبار جسدها الذي توارى وغطاه تراب قاس . .لقد غضت بعدها في وحل الحياة الذي اكتشته ومعه العالم الآخر الذي همت فيه ولكن هاهي ! ..

عندما تملكني ارتعاش ، جسدي الخامل يرتعش بقوة ، تبطط عرقا كثيفا ، رزيتها بوضوح ، أحس بملمسها ، مادي بارز ، أمد رزسي أمامي ، أراها تشف زمامي ، إن عصر هذا الجسد أمد أمد رقبتي فيزداد الانكشاف أمد() أوحده يمثل امتلاكا لروح تذوب مكوناتها في الشرايين .

رقبتي فيزداد الانكشاف فالالتصاق فالتداخل . كلي يندفع ، خفة وارتفاع إلى الأعلى ، اختفى كل ما كان أمام العين ، لا مناظر ، لا مدرج ، لا شيء ، فقط تلك البقعة الزجاجية .

ها هو حرمان دهور يتلاشى بعيدا ، أملك الآن شيئا كثيرا ، عندما استولى عليها أكون قد ملكت ما أريد من الدنيا ، ها أنذا .

وقذفت بنفسي في بقعة الزيت ، انزلقت به ، دخل بين الجفن والعين ، فانزلقت الدنيا من حولي ، وحجبت عتمة الزيت كل الرؤى .

****

قال الشيخ :

كان المسجى يلهث ، أعضاؤه تتحرك بقوة ، يداه تضغطان على جسده ، كأنه يريد أن يخرج ما بداخله سواد اليد بسواد الجسد ، ارتعش ثم سكن ، نفس ضعيف يكشفه سواد يرتفع وينخفض مع الصدر . أردت أن أقول شيئا ، أي شيء :

ـ هل ذاك آخر عهدك بابن مولانا ؟

أراد أن يتغلب على ضعفه ، كأن حرارة الرؤية السابقة تلهبه ، رفع أصبعه محذرا :

ـ لا تبخسوا بقعة الزيت حقها .

ـ ماذا ستفعلون الآن ؟

كان هذا هو السؤال الذي قذفته في حلقة القوم التي اتسعت ، وكأن عدوى السؤال تملكتهم ، لم يعودوا ينظرون إلى الشاطئ الممتد الذي تقاذفت عليه قطع متضخمة من الزيت ، وكانت كعوب وسيقان بعضهم قد تلطخت به . يتطلعون إلى بعض ويهمهمون ، صاح صوت متحمس :

ـ لابد من انقاذ ابن مولانا .

وتحرك صوت هامس .

ـ نحاول أن نحمي شواطئنا :

ـ بل ننتظر نجدة طلبها الوالي ، اطمئنوا ولا تشغلوا بالكم ، ولا ترعبوا الناس ، فكل شيء على ما يرام ، فقط أقفلوا على ابن مولانا . هو وحده في خطر حقيقي لا وهمي .

أحدهم همس في أذني :

ـ هل يمكن أن تدبر رحلتي مع قافلتكم ؟

نظرت إليه ، ووعدته خيرا .

مع انبلاج الصباح ، كانت قافلتنا تتحرك طلائعها خارج المدينة ، بقايا سواد الليل لا يزال يلفها أوليات النور تكشف قطع القار الزاحف ... وفي خارجها ، أنخنا رواحلنا ، كل فرد من القافلة أمسك بخرقة خشنة يزيل ما علق به من زيت .

نظرت من بعيد إلى العمامة السوداء التي تحيط بها ، كعمامة مفصلة على الرأس .

تساءلت :

ـ ماذا سأجد لو عدت بعد عشرين عاما ؟

ولم أعد إليها ، ولكن ذكراها بقيت تمثلها هذه البقعة السوداء الباقية ، وأشار إلى ساقه ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كيـف أصبحـت حشـرة..؟!

.. الكتابة ، بقدر ماهي متعبة ، فهي لعبة سحرية عجيبة .. أتساءل ما إن كان سيأتي يوم يدعي فيه أحد أنه كشف أسرارها .. لا .. لا .. لاأظـن ذلك ! .. إنها سر سر مدي خالد ، وسيبقى كذلك إلى الأبـد .. تماما مثل لعبة السحر ، فالساحر إن حاول كشف أسرار سحرة، سنزول عنه كل مخترقاته ، ولن يجد من يصدقه أو حتى من يستمع إليه ..

ولذا أرجوكم .. لاتسألوني كيف أصبحت حشرة تعيش في ثقوب صغيرة مظلمة داخل الجدران .. فأنا نفسي لا أعرف كيف حصل ذلك، وكل ما أتذكره هو أنني كنت يوما ما جالسا أمام مكتبي – أقصد طاولتي بالمطبخ – فرأيت حشرة صغيرة تجري فوق أوراقي المترامية ، فانشغلت بها عن كل ماهو حولي .. كانت تجري غير مبالية بي ولا عابئة مني .. حتى أنها تجرأت وتشبثت بخنصري وتسللت إلى ظهر يدي غير آبهة بما يمكن أن أفعله بها .. وكأنها علي وثوق تام من أنني لن أفعل بها شيئا .. وقد فكرت فعلا في قتلها ، لكني تراجعت وكأن حدسا مريبا منعني عنها .. أو أن طلاسة ماجاءت ومنت من سبورة رأسي هذه الفكرة ، وهب .. لم يعد لها أثرا !! .. بل على العكس من ذلك فقد تركتها تفعل ماتريد ، تجري حيثما تشاء .. فخلتها عروسا جميلة تركض على شاطئ الأمان مزهوة بفستانها الأبيض الخلاب ... واستمريت أرقبها في نشوة المحب المشدود ، مندهشا لجرأتها ولامبالاتها .. حتى حدث ما لن يصدقه أحد !! .. لقد كلمتني تلك الحشرة الصغيرة !! لم أصدق نفسي أول الأمر ، واعتقدت أنني أحلم أو أهذي أو أي شيء آخر غير أن تكلمني حشرة ... لكن هذا ماحدث فعلا ثم سمعتها للمرة الثانية وهي تخاطبني :

- هاي ، أنت .. ألا تسمعني .. أني أكلمك.. أكلمك أنت ؟!

فوجدت من الحماقة أن أجيبها .. وكيف لي أن أكلم حشرة .. أكيد أنا أهذي .. أبدا .. أبدا ..لن تنطلي علي هذه الدعابة السخيفة ... فلست سيدنا سليمان ، ولا حتى أحدا من رجالات الزهد أو التصوف الصالحين .. البارحة فقط إرتكبت إثما .. فليغفر لي الله ... لكن الصوت عاد مرة أخرى يخاطبني :

- هاي .. أنا أكلمك .. ألا تسمعني .. ألا تفهم ؟ ! ودون وعي مني وجدتنـــــي أقول :

- أنت .. أنت تكلمينني أنا .. أنا ؟ !!

- أجل أنت .. (أجابت) .. وهل يوجد غيرنا في هذه الغرفة ؟

كان الموقف صعبا .. ومنظرها غريبا وهي تكلمني .. لقد كانت قوادمها تتحرك بتوافق وانسجام كبيرين .. ملوحة بقرونها الرقيقة في مواجهتي ...

حتى تلك اللحظة لم أصدق أنني كلمتها وأنها أجابتني .. تيبست شفتاي وتعلقت الكلمات بحلقي واحتبست ، ولم أستطع الرد .. سأفقد صوابي إن فعلت .. وكذلك إن استمر الأمر على هذا الحال .. لابد أن أفيق أو أستيقظ .. أو أجن .. وتداعى صوتها مرة أخرى بكل جلاء :

- أجل .. صدق ، أنا أكلمك .. أعلمك .. أعلم أن هذا الأمر صعب بالنسبة إليك .. لكن هذا مايحدث فعلا ، وعليك أن تصدقه وإلاّ ... !

- أجن ؟ !! صحت مفزوعا كمن استيقظ لتوه من كابوس رهيب .. ثم إستدارت عني بظهرها ملفته رأسها نحوي .. وقالت وهي ترمقني من ركن عينيها الصغيرتين :

- ستفهم كل هذا فيما بعد .. الزعيمة بإنتظارك .. هيا اتبعني .. لاتخف .. وتحركت تجري فوق يدي ، ثم نزلت إلى الطاولة .. ودون إلتفات إستمرت في جريها متجهة نحو الجدار أين خرقت مجموعة من الثقوب الصغيرة السوداء ، وكأنها على وثوق تام من أنني سألحق بها وأنفذ طلبها .. بل أمرها .. إندهشت .. وفي لحظتي تلك وجدتني منجذبا إليها ، أتبعها بنظراتي ، ثم بكامل جسدي .. أجل وحتى أركض خلفها ... بل أجري مثلها

علي الطاولة أتبعهما إلي الثقب وكأني حشرة .. بـــل فـــعلا لقـــد صـــرت حشـــرة ..

ماذا جري لي .. كيف حصل هذا .. يا إلهي !!!

وأنا دوما ألاحقهما ، لا أملك لنفسي أمرا غير المثول لأمرها واللحاق بهما ... دخلت الثقب فدخلت وراءها .. كان الجحر مظلما .. لم أبصر شيئا .. لكنني شعرت بقرون إستشعارية تلامس الجدار .. كانت تلك قروني .. وسرت في هديها أتبع الحشرة مختفيا رائحة غريبة ، إنها رائحة تلك الحشرة التي كانت تسبقني .. لا أدري كيف عرفت ذلك ، لكن وجدتني أعرف وفقط !!

فقطعنا شوطا كبيرا ونحن ندب في عتمات تلك الدهاليز .. لاأدري إلى أين وصلنا ، ولاأين نحن .. ربما نكون في الغرفة المجاورة ، أو في بيت الجيران !!

أخيرا لحقنا بفتحة كبيرة .. ومنها دخلنا حجرة واسعة .. كانت مليئة بالحشرات المماثلة .. ملايين الحشرات ، وكأن كل حشرات العالم تجمعت في هذا المكان ... أكثرها كان مستلقيا على الأرض يتألم ، محركا قوادمه وقرونه الاستشعارية إلى أعلى .. بل منها من كف عن الحركة فاقدا الحياة .. حتى أننا اضطررنا للجري فوق جثثها ، إلى أن بلغنا آخر الحجرة أين وقفنا أمام حشرة كبيرة يحيطها جمع آخر من الحشرات .. أظنها الزعيمة ومن حولها حراسها وحاشيتها أو هذا ماتبادر لي حينها .. لذا كان علي أن أستعيد أنفاسي وأهيء نفسي لمواجهة ما ينتظرني من مصير مجهول !!

ظلت تلك الحشرة الكبيرة ترمقني للحظات طويلة ، شعرت حينها برعب شديد أنزلني منزلة السجين المحكوم عليه بالموت ، وهو واقف أمام العساكر وهي حاملة بنادقها المزودة بالذخيرة الحية ، تنتظر إشارة من رئيسها لتطلق عليه النار فتردية هالكا بين الهالكين ... حتى أتى صوتها المتحشرج أخيرا ، مثقلا بهيبة الزعماء مجلجلا :

- هل رأيت تلك الجثث ؟

تلعثم لساني للحظة ثم أجبتها بتوعك وكأني متهم بقتلها :

نعم .. لقد .. لقد اضطررنا للمرور فوقها كي نصل إلى هنا .. لأنها غطت الأرض ولم تترك لنا مكانا نمر عبره.

وبنفس الهيبة عاودت سؤالي :

• هل تعلم لماذا ماتت ؟

– لا .. لا أعلم سيدتي !! قلت وقد تلبسني الرعب من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

– إنه الجوع .. (أجابت) .. الجوع هو سبب هلاكها ، وسيموت الجميع إن لم نصل إلى حل لهذا الأمر.

.....

لم أفهم بعد .. وقلت في قرارة نفسي .. ومادخلي أنا بهذا .. وأي ذنب إقترفته حتى يوجه إليّ هذا السؤال ... ولم تلبث طويلا في صمتها حتى أردفت :

– أخبرني ، ما الذي يحدث عندكم .. لماذا لم يعد في بيوتكم خبزا .. إنه غذاؤنا الوحيد .. فإن إستمر الأمر على هذا الحال سوف نموت جميعا .. لكن قبلها لن نتركم تمنون بموتنا .. سنثأر لأنفسنا قبلها .. إما أن نعيش جميعا أو نموت جميعا ..

كانت نبراتها عالية ولهجتها غاضبة مهتاجة .. وخشيت أن ينقلب الأمر عليّ وأدفع فاتورة حساب لم أستدنه ... لكن ماعساني أجيبها .. وهل ستتفهمني .. لكن ليس لدي خيار .. سأحاول .. فقلت :

– حضرة الزعيمة .. إننا نمر بأوضاع مضنية خطيرة .. وبلادنا تعاني من الداء مايصعب دواءه ويجلي سقامه .. إننا نغرق في بحر من الدم ، وإن لم يلطف بنا الله سنؤول جميعا إلى الهلاك ، حتما إن ليس اليوم فغدا ... لكنها قاطعتني في حنق :

– نحن لايهمنا مايحدث بينكم .. إننا نريد العيش بسلام .. نريد الخبز لأبنائنا .. والأمان .. و إلا فالفناء للجميع ... ثم إسترسلت :

= من هو زعيمكم ؟

– رئيس الدولة . (قلت).

فردت :

– اسمع .. اذهب إليه ، وأخبره ، إما أن نعيش جميعا أو نموت جميعا .. هل فهمت ؟!

كان صوتها عال ومشحونا بالغضب والعزم .. فخشيت مقاطعتها .. لذا فضلت الصمت ، وأخذت رأسي غارقا في التفكير .. والصوت يتردد في ذهني كالصاعقة مدويا .. إما أن نعيش جميعا أو نموت جميعا .. أخبرهم .. أخبرهم ... وفجأة .. وكالفيث الهاطل ، أبرقت في ذهني فكرة .. فهجست في سري .. أجل إنها هي .. هذا مايجب فعله .. ثم رفعت رأسي لأكسر هذا الصمت المخيف ، بقولي :

- هل بينكم من يعرف بيت شيخ البلدة .. ليأخذني إليه ؟

أجابت الحشرة الصغيرة التي جلبتني إلى هنا قائلة :

– أنا أعرفه ، هيا اتبعني ... وطلبت الإذن من الزعيمة وجرت ، وجريت وراءها ...

لايهم كيف وصلنا ، ولا كم قطعنا من شوط .. ولاما عانيناه في الطريق .. المهم أننا وصلنا .. وها أنا أقف الآن أمام بيت شيخ البلدة .. ودون تردد تسربت من تحت الباب دونها ودخلت المنزل .. عفوا ، بل كان قصرا .. وأول ماصدمني رائحة الخبز وكنت جائعا .. ثم سمعت وقع أقدام تقبل نحوي .. بقيت أتطلع إليها .. كانت أقدام إمرأة فارعة مكابرة .. فانتابني خوف من قامتها الكبيرة الضخمة ، وخشيت أن تدوسني ، لقد نسيت أنني حشرة يسهل الدوس عليها وقتلها دون رحمة بل حتى دون أدنى إهتمام .. وحاولت أن أرجع على أعقابي .. لكن فات الأوان .. هاهي القدم تنزل عليّ .. فانكمشت على نفسي مستسلما ، وتحسرت كثيرا لأنني سأموت على هذا الحال ... ومن سيعبأ لموت حشرة في مثل هذا الزمن ؟!! .. وتمر الأقدام ثم راحت تبتعد

عني شيئا فشيئا .. ولم أمت ... الحمدلله، مازال في العمر بقية ... نسيت جوعي وفزعي وأسرعت مباشرة جهة الغرف ، أبحث عن غرفة النـــوم .. هنـــاك مقصدي .. وهممت بالجري فوق "الموكاة" الأحمر ... ودخلت الغرفة الأولى .. ليست هذه .. ثم الثانية ، ولاهذه .. الثالثة ولاهذه أيضا .. وأخرى ، وأخرى ..حتى كدت أيأس .. أخيرا وجدتها بعد أن شقت كبدي من عـــناء البحث و فـرط التعب .. واتجهت ناحية خزانة الملابس .. تسلقتها ونفذت بين شقوقها إلى الداخل .. كانت خطتي أن أختبيء في جيب أفخم بدلة .. فحتما سيأتي اليوم الذي يقابل فيه شيخ البلدة رئيس الدولة ، ولن يرتدي لمثل هذه المناسبة إلا البدلة الفخمة التـي سأختارها.. وإذ ذاك سأتمكن من مقابلة الرئيس وإبلاغه الرسالة .. لكن خاب ظني فكل البدلات فخمة وجديدة .. وبقيت محتارا أيها أختار ... لكن لم يعد لدي وقتا للتفكير ، فتسلقت جزافا واحدة منها ، واختبأت بجيبها تاركا القضاء والقدر يحكم دوره ..

واستسلمت للإنتظار ... سمعت مرة الدولاب يفتح ثم يغلق من جديد .. و لم تكن تلك البذلة التي أنا بداخلها ... ومرت الأيام والشهور ، و السنون .. و أنا لاأزال بعد ماكنا في جيب سترة شيخ البلدة أنـــتظر .. وأنتظـــــــر .. و أنتظـــــــر !!.

تمت